بركتيا

أرض المرأة الحكيمة

رواية

أبو بكر حامد كهال

مجلس الثقافة العام

حسن أبو يوسف الدويبي

إصدارات

مجلس الثقافة العام

بركنتيا

(أرض المرأة الحكيمة)

رواية

أبو بكر حامد كهال

الناشر

مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب: بركنتيا (رواية)
اسم المؤلف: أبوبكر حامد كهال
سنة النشر: 2008 م
رقم الإيداع: 790 / 2008 م
الترقيم الدولي: 4 - 713 - 38 - 9959 - 978

تصميم الغلاف: علي العباني
لوحة الغلاف: علي العباني
التنفيذ الفني: دار قباء الحديثة - القاهرة

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت
هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161
فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار
هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388
ص ب 2764 طرابلس
فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني
هاتف 00218612241577 - 00218612241578
بريد مصور 0021861224157‍6 - ص ب 9351 بنغازي
بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca

مــرات عديــدة صعدت إلى جبل (أمولة). وأكثر هذه المــرات كنــت أصــعده بحماري "ريفاى"، محملاً بهدايا كانت ترســلها أمي لجدتي في المناسبات، أو عقب مواسم الحصاد... يــركض أطفــال أنصاف عراة أمامي، لتلقي ألسنتهم الصغيرة بخبر مقدمي على مسامعها. فتخرج لتستقبلني بزغاريد محببة... أهجــم علــيها بشــوق.. مقــبلا ظاهــر كفيها... وجبينها... وركبتــيها... أهــبها هداياها ثم أطلق ريفاى بعد أن أضع على قائمتــيه الأماميتين قيداً قصيرا ليأكل في الجوار. ودون انتظار أنطلــق لإشــباع هوايتــي في استكشاف أنحاء الجبل... كانت تأســرني قمــتهُ المســتوية. بمــا يتخللها من ارتفاعات مطوقة بالأوديــة، وقــد نمــت فــيها أشجار، (الأبنقول) و(اللشم) المتكاثف.

وأكثر ما كان يأسرني. هي الإطلالة من فوق أعلى نقطة، عند (بيت قوع)، ومشاهدة المنحدرات التي تهبط بحدة صوب واد عمــيق، وقد تداخلت فيها أشجار (القرط)، و(الحرنكع)، الشــاهق. ثــم الإطلالــة مــن هناك شرقا نحو سهل " قذقذا ". والاستحمام على شلالات " طنعابت "، ومشاكسة القرود العائدة إلى كهوفها الصخرية.

وقبل أن يبتلع الضباب كامل الجبل. أعود سالكا طرقا غير مألوفة. أنزل عبر جروف لم تمشها غير القرود... أتعرق حين لا أجد موضعا لقدمي سواء أنصال صخرية حادة وطويلة، أو صفائح أحجار ملساء. مرة عثرت فوقها على أكداس من ثمار وفاكهة اعتقدت أنها (مائدة السماء)، أكلت منها بشهية ناظرا للرونق قبل أن يغلف. أغادر الجبل وسط حجب الضباب، مهتديا لطريقي بأصوات الناس وخوار الأبقار. وقبل أن آوي للنوم، كنت أتوسل لجدتي أن تنظف البيت من حشرات (المعلنقوا) المقززة. التي كنت أراها تتزاحم ببطونها البنية الكبيرة والمصقولة. وكنت أعتقد كلما نظرت إليها، أن بطونها التي كانت تبدو مشدودة لأعلى، ستنفجر في وجهي. سرعانا ما أشيح عنها خشية حدوث ذلك.

كان الصعود عبر دروب الجبل الملتوية. يمثل مغامرة على الأقل، بالنسبة لصبى مثلي، نشأ في سهوب عنسبا الفسيحة. ولطالما سمعت قصصا كثيرة ومهولة عن صبيان انزلقوا من هناك فوق صفائح صخرية ملساء مطحلبة، وانتهوا إلى قعر هاوية.

مشـــهد وحـــيد كـــان يجعلني أتصبب عرقا، وهو رؤيتي لعـــنقود صخري ناتئ امتد أفقيا من أذن الجبل، وبقي معلقا في الفضـــاء. وكـــان دائمـــا يداخلني اعتقاد جازم بأنه على وشك الانفـــراط، وأننـــي لن أجده في المرة القادمة حتما. وحين ألقاه خلال زياراتي التي لا تنقطع على مكانه ذاك، يزداد خوفي على الناس الذين بنوا مساكنهم على السفح.

أمـــا إبان قطعي للدرب الطويل الواقع أسفل العنقود الذي كـــان يتعيـــن على السير فيه، كنت لا أنفك عن التحديق صوبه خشـــية سقوطه على رأسي. وكان حالي كحال تلك القرود التي تقضـــي اللـــيل بطوله في التحديق نحو نجوم السماء، مخافة أن تسقط على رؤوسها.

هـــذه المـــرة، وأنـــا أدفع بريفاى عبر الدرب الصخري الصـــاعد، كنـــت أخشـــى كثـــيراً، أن تنفلت الأربطة، وتسقط الأحمال. لكنني كنت أطمئن حين أراه يمشى بحذر موازنا جسده مـــع كل ارتفاع وانخفاض للدروب. وحتى في الممرات الضيقة التي تقع بين جانبي صخور عالية. يتخير بفطنته زاوية الدخول إلـــيها ومـــن ثـــم ينسرب بكل أحماله بسلاسة. كنت أحسه بهذا الصنيع يسدى لي خدمة جليلة وأنه يراعى حداثة سني.

تبادلت مع جدتي عن مستجدات الحرب، وعن قلق الناس في وادي "عنسبا" والحزن الذي تلبسهم للواقعة المروعة الذي ارتكبها الجيش الإثيوبي في قرية "عد إبرهيم" بإقليم "القاش".

عقب أحداث "عد إبرهيم"، وفي صباح اليوم التالي لعودته من زيارة قام بها لبلدة "جوجرات"، مسقط رأسه. أرتدي ملك الملوك "نقوس نقستي" هيلي سلاسي. زيي البحرية المثقل بالأوسمة، استعدادا للقاء ضباط حملته على إرتريا. وعلى الرغم من أن صباح العاصمة (أديس أبابا) كان مطيرا. إلا أن طائرات قاعدة "دبرزيت" الحربية، كانت تقلع وتهبط. خالعة معها نعاس فقراء حزام البيوت العشوائية القريبة منها.

وكان (النقوس) هيلي سلاسي، يستمع لأزيزها بنشوة. زالت في اللحظات التي لمح فيها هيئته أثناء مروره أمام مرآة جدار مكتبه، وتذكره حلم الليلة البارحة.

والحقيقة، لم يكن ما حلم به سوى تطبيق معدل تعديلا طفيفا لصور الأسطورة التي لا يمل الإرتربون من تردادها كلما تعلق الأمر بالجارة إثيوبيا، وسعيها الاستحواذ على بحرهم. وكنتيجة لهذه الجدلية المعقدة، أي انقضاضات إثيوبيا على البحر، كلما واتتها الفرصة. واستماتة أصحابه للدفاع عنه. أنتج

الأرتـــريون الآلاف المؤلفـــة من القصائد الشعرية، التي تتغنى بالبحر. مما يجعل من سكان حكايتنا هذه على رأسها قائمة أكثر الشـــعوب نظمـــا لقصائد البحر. ليس أولها "أجدادي، يا حراس البحر" ولا آخرها:

"قيح بحر، من بدير بحرنا

تاريخ لشهد، وعالم أمرنا".

وترجمتها من لغة التجري:

"البحر الأحمر، بحرنا منذ الأزل.

يشهد التاريخ

ويعرفنا العالم".

وكـــان كلمـــا اعـــتلى العـــرش الحبشي، ملك جديد، أو إمبراطورا، يسارع بإطلاق وعوده للأمة الإثيوبية بانتزاع البحر الإرتري. وبالمقابل كانت إرتريا أو" سينوس إرتريوس " اسمها الإغريقـــي القديـــم. ومعناه، البحر الأحمر، تهرع إلى امتشاق سلاح النزال.

كـــان الحلـــم الـــذي رآه "نقـــوس نقستى" إذن، هو تلك الأســـطورة الإرتـــرية التـــي تقول: "أن ملك من ملوك إثيوبيا

القدامـــي. اصـــطحب ذات عشية قادة جيشه، ووزراءه، وعُمد القــبائل، وأمــراء الأقاليم، وجل رجال ونساء البلاط الذين فاق عددهـــم المائة فردا. ودخل بهم إلى كهف جبلي عميق ومظلم. أقعدهـــم هناك في حلقات حول شمعة عملاقة كانت تنير الكهف مثل نور الشمس. وبعد أن أمر بسد باب الكهف، نهض فجأة من مكانه وأطفأ الشمعة ليعم الكهف ظلام دامس.

اســتغرب الحضـــور فعلـــة الملـــك، وقبل أن يفيقوا من استغرابهم ذاك سمعوه يقول بصوت جهوري: (هل تحس مدى ظلمة هذا الكهف يا شعبي؟).

جاوبـــه صـــوت أحد الحاضرين كمن يوشك أن يتشرخ بالبكاء: (كأننا ولدنا عميان يا مولاي).

تكلـــم الملـــك خلال الظلام قائلا: (أما هذا الكهف، فهو بلادنـــا هـــذه التي بلا بحر. وأما الشمعة التي كانت تنيره، فهي بلاد جيراننا البحرية. ينبغي علينا احتلالها اليوم قبل الغد، حتى لا نتخـــبط طـــوال حياتـــنا في ظلام أشد ظلمة، من ظلام هذا الكهف).

الفـــى هـــيلى سلاسي نفسه، محاطا برعيته داخل كهف لا يخـــتلف عـــن الكهف الذي ولجه ذلك الملك القديم، وكانت

هـــناك ذات الشـــمعة تنير كشمس، ورأى مدخل الكهف ينغلق علـــيهم مـــن تلقائه. ورأى نفسه بعين واحدة. (تساءل لاحقا، لمـــاذا كنت بعين واحدة؟). وميز أن الرعية التي رافقته إلى الكهف، لم تكن رعيته هذه. كانوا أناساً آخرين. بحيث أنه كان عاجزا عن أن ينادى أي منهم باسمه كما أن المرأة التي كانت تجلس لجانبه، لم تكن زوجته الحالية الإمبراطورة (زودي)، بـــل كانت امرأة أخرى لا تشبهها حتى. انقبضت نفسه كثيرا، وحـــاول أن ينســـى المرأة الغريبة والرعية المجهولين وعينه الغائبة.

وقـــف قـــادة الحملة الذين توافدوا إلى القصر داخل قاعة فســـيحة مجـــاورة لمكتب الإمبراطور الذي وما أن أطل عليهم، حتى خر الجميع بالسجود. وكانت كلبته القابعة تحت قدمية ترفع وتخفـــض رأسها في حركة آلية كأنها كانت ترد بها على التحية نيابة عن صاحبها. وعرف عن الإمبراطور أنه لا ينجز عملاً، أو يخطـــو خطـــوة دون أن تكـــون هي بجانبه لا سيما أوقات زياراتـــه للأقاليم. فإن نزلت هي من العربة نزل، وإن امتنعت امتـــنع. ويأمر بتحرك الموكب ليتوقف في مكان آخر وآخر... وهكـــذا... فـــإن نطـــت تبعها بأسارير مبسوطة. وإن أحجمت لا يجازف بإرغامها على النزول.

لـــم يكن للكلبة ما يميزها عن سائر كلبات الأرض. حيث إنهـــا ولـــدت مـــن أم محلـــية وأب أجنبي من اليمن تحت أحد الجـــدران الداخلية للقصر الإمبراطورى المسمي "أردي بياسا"، تســـبقه دائما، إلى أبواب الخروج والدخول، وإلي مائدة الطعام، وحتى غرفة النوم، كان لابد أن تقفز إلى السرير قبل أن يأخذها الحرس إلى الجناح المجاور ليفتحوا لها في الصباح أبواب جناح الإمبراطور ساعة استيقاظه.

لقد تعلق بها الإمبراطور منذ اليوم الأول الذي قدر فيه أنهـــا كانت السبب في إنقاذ حياته من الموت بالسم الذي دس لـــه في طعام عشائه.

يـــتذكر الخـــدم بوضوح، جزيئات ما جرى فيما عرف لاحقـــا بلـــيلة السم. فحين جلس النقوس إلى المائدة في حديقة القصـــر، وقـــبل أن يمد يده نحو الطعام. فوجئ الحراس بكلبة مجهولة تخترق الطوق المضروب حوله. ثم شوهدت تقفز إلى الطاولـــة وتخطـــف لنفســـها شيئا منها. وأثناء فرارها سكبت العصـــائر وأطباق الأطعمة ومنها طبق مرق الحمام المفضل لدى هيلى. والذي اكتشف لا حقا أنه كان مسموم.

وقال الخدم، أن الإمبراطور غادر المكان لاعنا الحرس والكلاب. وحين استفسر وقتها عن الهرج والمرج المنبعث من المطبخ الإمبراطوري، أنبئ بوفاة اثنين من الطهاة جراء سريان سم في بدنيهما بعد أن لعق كل منهما غرفتين من مرق الحمام. فكر الجميع عقب الحادثة "كان المستهدف النقوس شخصيا".

تذكر الإمبراطور فيما بعد الكلبة التي رأى أنه مدين لها بحياته. ومن فوره طلب من الحرس إحضارها، ومن يومها صارت ملازمة له.

حادثة التسمم لم تأخذ في طريقها الطهاة وعمال وعاملات مطبخ الإمبراطوري فحسب، بل أخذت معها عدوت الإمبراطورة السيدة "مبرت" شقيقة الإمبراطور، والسيدة "قنت" ابنة عمه، التي يعني اسمها الجنة. تلك السيدة الجافة والتي تتصرف مثل ربة البيت، وراعية الأشقاء والشقيقات وكل من في قصر "بياسة أردي" بمن فيهم الإمبراطور نفسه. الذي لا تروق لها طريقتهُ في غض النظر عن تعديات أقرباء الإمبراطورة، وانهدامه. كما تقول السيدة قنت أمام الإمبراطورة حين تنفرد به وتألبه على الكل عدا أقربائها طبعا.

وعلى مدى سنوات شكل الثنائي مبرت وقنت الحاجز الذي كان بمثابة السد المنيع أمام طموحات الإمبراطورة، وجاهدتا من أجـــل هـــدف واحد، هو إبقاء (زودي) كزوجة "لنقوس نقستي" وحسب دون إن تضيف إليها هذه الزيجة أي ميزة أخري.

والحقـــيقة إن علاقـــة النساء الثلاث تكونت منذ أمد بعيد، ترجع إلى ما قبل اعتلاء "تفرى مكنن" العرش تحت اسم، هيلى سلاســـى. وأن لـــم تكن متينة كفاية، بسبب من أن كل من قنت وزودي قـــد أحبـــتا نفس الشاب، واشتعلت بينهما منافسة خفية كانت الغلبة فيها لزودي الشابة الجميلة ووريثة العرش. اجتذبت الشـــاب لجمالها ولما خبره من تمتعها بثقافة أعلى بدرجات من ثقافـــة الثنائي وليس كما تقول حتى الآن قنت "لأنها كانت متكئة علـــى دعـــم معنوي كبير... كانت وريثة العرش... وأن الذي يشغل منصب الملك كان هو والدها". وتنفي أنها، أي قنت كانت متكئة على السمعة المتوحشة لأعمامها ونفوذهم بحسبانهم حاشية مهابـــة فـــي الـــبلاط. وكان الويل كل الويل، لمن يعبث بقلوب بـــناتهم. لقد دعت قنت الشاب مرات عدة لحضور الاحتفالات، والمناسبات الهامة التي يعقدها الأعمام في المزارع، إلا أنها لم تلمس منه أدني ميل نحوها، بل كانت تشاهده في اليوم التالي مع زودى على ظهر جواد واحد يغيب بهما في البراري.

كان الملك "منيليك" والد زودي يحتضر حين مات الشاب "جـــنداهون" الـــذي كـــان محـــور تنافس الشابتين في ظروف غامضة. ومنذ تلك اللحظة، أو قبلها لا أحد يعرف. حط الشاب والسياســـي الطمـــوح "تفري مكنن" نجل حاكم إقليم "شوا" عينه علـــى الفتاة زودي، ولية العرش الذي سيتوفي والدها بعد أشهر من عقد قرانها على تفري مكنن.

إن العجلـــة التي أبداها في إتمام الزواج. بثت الريبة في قلـــوب الفطنين من حاشية منيلك، الذين تشاوروا لمنع الزيجة. لكـــنهم أخفقـــوا بســـبب من أن الداهية مكنن كان يسبقهم دائما بخطـــوة. مستخدما حيل الخداع السياسي ومداهنة حكام الأقاليم والأعيان والكسبة من الحاشية. الأمر الذي مكنه في النهاية من التربع على عرش الإمبراطورية، تحت لقب (نقوس نقستي)، ملك الملوك هيلي سلاسي.

بـــيد أن الطامـــة حدثت بعد إنجاب الإمبراطورة زودى، لطفل عقب ستة أشهر من الزواج.

لقـــد هـــزّ الحدث أركان البلاط. ولكن في النهاية توصّل علـــية القـــوم، أن يظـــل الأمـــر سرا وأن لا يطلع العامة عليه ولينتهـــي بقـــبول الـــنقوس بـــأبوة الطفـــل. لكن لا شئ يخفي

على الشعب، لقد تردد في تلك الأيام اسم الشاب المأسوف على شبابه المغدور "جنداهون" كثيرا بحسبانه الأب.

كـــان أول الواصـــلين للقصـــر (أســـرات كاسا) صهر الإمـــبراطور الـــذي يشغل منصب الحاكم العسكري لإرتريا تلاه وزير الدفاع ثم قادة كافة الأسلحة من برية وجوية وغيرها، وكان آخـــر الداخليـــن (اسفها ولد سلاسي) رئيس البرلمان الإرتري المـــنحل. الـــذي حل بمرسوم إمبراطوري عام 1962 ألغي فيه أيضـــا الاتحـــاد الفيدرالي الذي ربط ارتريا بأثيوبيا بموجب قرار كـــان قـــد صـــدر عام 1952 من قبل الأمم المتحدة عقب هزيمة إيطالـــيا التـــي كانت تحتل إرتريا. وعدت البلاد حسبما جاء في المرسوم الإمبراطوري المحافظة الرابعة عشر لأثيوبيا، وقد جاء القـــرار الأممي لقتل سيادة الكيان الإرتري الذي كان لـــه علمه الخـــاص، ودستوره المتقدم، مقارنه بدستور الحبشة الرجعي. كما كـــان لـــه برلمانه، وأحزابه، وصحفه القوية التي تصدت للقرار لجهـــة عدم مراعاته لرغبات الشعب الإرتري في الاستقلال. بل فـــرض علـــيه فرضا ليتمشى مع رغبات أثيوبيا الطامحة للهيمنة على الشاطئ الإرتري في البحر الأحمر ومصالح القوى العظمى التي صاغت القرار وطرحته للتصويت بعد أن هيأت لـــه أسباب النجاح، ولم يلتفت لصوت الوفد الإرتري، الذي ذهب لنقل مطلب إرتريا المتمثل في الاستقلال.

استمع الإمبراطور لتقارير متفائلة كانت تزلقها السنة الضباط عن الحرب وعن قرب إخضاع جبهة تحرير إرتريا ومحوها. وأسهب أسفها ولدسلاسي عن الكيفية التي أبيديت بها قرى عد إبرهيم، و"وسبنسريخ" "وقلامت". أثني الإمبراطور على دور رجالات إرتريا المخلصين لأثيوبيا مثل (أسفها) الذين ناصروا دمج البلد مع أثيوبيا "الأم".

لقد استمر خدر التفاؤل بالنصر على روح النقوس لأمد قليل ليس إلا. ثم عاوده حنقه الشديد ذاك على المحيطين به لشعوره الدائم، أنهم يتواطئون لدفع عرشه نحو الهاوية، وأن خيبة أمله خاصة في أقرب الناس إليه زوجته باتت كبيرة، الذي أصبح الآن يرها مثل: "امرأة تلتقيها صدفة". (تقبل بمرافقتك لغرض في نفسها، وأنت مثل الأبله، فقط عليك كل صباح الاستيقاظ والاستماع إليها وهي تلقي عليك ما تنغص به عيشتك. "يا مغتصب العروش" صرت مثل جذع شجرة في نهر متلاطم تعتليك متى أرادت ثم تلفظك في المجرى لتتحطم على الصخور وحيدا. وها هي هذا المرأة تعتليك. أنك تحسها وراء كل لسان ووراء كل مستشار أو مقرب. وهذه الحرب التي تشن على ولي العهد، ألا تحس أنها من يؤججها؟ الإمبراطورية كلها تعرف السر، أن ولدك البكر ليس من صلبك ولهذا اخترت الابن

الثانـــي ليصـــبح ولـــيا للعهد). ثم يختتم حديثه الذي يهمس به لنفسه: "لتغضب الإمبراطورة ما شاءت الغضب". وهذا عين ما كـــان يـــردده أنصــــاره. وأما شعار خصومه، كان هذه الجملة الوحيدة "لتتشتت الأسرة الحاكمة"، ليطفو في النهاية على سطح الإمـــبراطورية خصـــام لا هوادة فيه. اصطف فريق مع الأب وولـــي عهـــده. وآخـــر، (الغالبية) مع الأم وابنها البكر. التي عاهدت نفسها أن لا ترى في البلاد وريث عرش غيره.

بصـــعوبة اســتقر الكهــل (قــرماى) أحــد أنصـــار الإمـــبراطورة علـــى المقعـــد الواطـــئ قـــبالة غـــريمه اللدود (متيجرون)، وهو أيضا حليف الإمبراطورة. وطفق يلقى بجام غضـــبه علـــى الـــناس الذين ينتزعونه من مهجعه في مثل هذا الوقـــت. وبعـــد أن حدجـــه بنظره الكليل كمن لم يسبق لـــه أن قابلـــه، وكـــان صحبة الأربعين سنة لم تكن كافية لطبع صورة مجسمة لـــه في ذاكرته قال:

- لماذا علي أن أتيك عوضاً عن أن تأتي إليّ بنفسك؟
- دعنا الآن من الجدال الذي سينضب روحك ولا شك. ثم صـــمت لـــبرهة وقـــال. ماذا تريد أن تشرب؟ لدي كل أصناف الدنيا هنا. هل ما زلت مغرم بالجن؟

- وهل هناك ما هو أفضل لمن هم مثلي غير الماء؟
- أنت تعرف في أمثالنا، أن الماء للطفل والضفدع، فأيهم أنت؟
- كلاهمـــا معـــا. فأنا طفل عاجز، إن أردت أمام الكارثة حـــول مـــن يكون وريث العرش؟ ثم أن الحرب جعلت منـــي ضفدع وجد نفسه فجأة فوق حلبة رقص محمومة توشك أن تدوس عليه أحذية الراقصين.
- لا. لا، الحـــرب لها رجالها، أنا وأنت شأننا هو العرش. لهـــذا أرســـلت فـــي طلبك، ماذا ستقول عنا إثيوبيا غدا؟ تفرجوا على النار وهي تشب. ولم يتحركوا لإطفائها، أهذا ما تحب أن يقال عنك وعني: من هنا وإلي يوم القيامة..
- ومتي كان لنا رأى في أي شئ على الإطلاق؟
- حســـنا... لـــيس هذا المهم الآن... بصدق بت أخشى على حياة الولد.

أصـــاب الذعـــر وجه الكهل، وطفق ينظر تجاه محدثه بـــبلاهة، واحـــتار كيف أنه لم يستشعر احتمال أن تدبر موتة للولد. ووجد نفسه يقول:

- ما الحل؟

- هناك حل وحيد وهو أن تصمت أمه وتنسى أمر العرش نهائيا.

هكـــذا رد متـــيجريون مفضــــلا عدم إضافة المزيد حتى لا يشعر الكهل بأنه يعرف الكثير مما يدبر للولد.

نهـــض قـــرماى ووجد قدماه تحملانه إلى القصر ثم إلى جناح الإمبراطورة. الذي سمعها تقول بعجز:

- وهل سيتركونه بعد ذلك؟

- لماذا لا ترسلينه للدراسة في الخارج؟ هذا لسلامته.

وبينما كانت إجراءات سفره في طور الإنجاز، وجد ذات عشية ممددا فوق سريره بلا حياة. وحضر الدفن أصدقاء والده القدامي.

كان الوزراء وأفراد الحاشية والأعيان حين يتطرقون معه للمجاعـــة التي تفتك بناس البلاد يعزونها للحرب التي يخوضها جيشهم. وكان هيلي فجأة كمن يلسع يسأل:

- أي حرب؟

لا أحـــد يجيـــب. يكتفـــي الجمـــيع بالحملقة نحو بعضهم الـــبعض. وكـــان هيلـــي عادة يستيقظ كل صباح على تقارير مستشاريه الشفوية ولما تأتي كلمة "الحرب" يصدر أمره: "بلغوا جيوشي أن تحارب. نعم، الحرب".

ويـــنهمك فـــي وضع ودراسة الخطط وإقالة وتنصيب قادة جيش الجبهات. وحين علم أن جبهة تحرير إرتريا تخطط لتسليح ثـــورة شـــعب إقليم "تقراي". وتوسيع رقعة الحرب. وإنها إذا ما تمكنت من بلوغ مرادها هذا، فإن ذلك يعد من أخطر ما ستواجهه الإمـــبراطورية. كان يرد سريعا: "ماذا تنتظرون ولعوا "تقراي"، وكـــان قـــادة الأركـــان فـــوق مقـــاعدهم كالمقيدين ينظرون إليه مصعوقين، بالطبع ليس من باب رفض مبدأ الحروب بل من باب أن "التولـــيع" يحـــتاج إلى غوث دائم خلاف أرواح الناس أي إلى أموال وهو ما لم يكن متوافرا في خزينة الدولة.

لا أدرى، مـــا الـــذي جعلنـــي أنام هكذا؟ كانت الأرض تـــتخلص مـــن نهارهـــا القائظ لتستقبل نسمات الشمال الباردة. أغراني ظل الشجرة الذي افترش الطريق بالجلوس هناك.

كانـــت عيونـــي تمسح سلسلة جبل عندر وبلدة "وازنتت" و"بـــاب لشم" مارا فوق قمم أشجار نهر عنسبا الذي سقيت منه

أغنامـــي منذ حين. أنعستني النسمات ووجدت نفسي أتمدد على الأرض، ثـــم نمـــت. ولأدرى كـــم مضى على من الوقت، ولم أســـتيقظ إلا عندما شعرت برائحة (جازولين) ورائحة مطاط محمى تتسرب إلى خياشيمي وإن شيئا ثقيلا يقف فوق رأسي.

- وحالمـــا فتحت عيني. رأيت هيكل سيارة ضخمة، وقد لامس عجلها الأيسر أنفي. كانت ست سيارات عسكرية إثيوبـــية، حيـــن رآني سائق سيارة المقدمة ممددا على الطريق الذي كان يسير بانحدار أبطأ السير ليفاجئني.

- انتزعـــت نفســـي مـــن تحت السيارة وقفزت بعيدا إلى خـــارج الطـــريق. رأيت بنادق الجنود فوق السيارات الســـت جمـــيعها مصوبة نحوى. فكرت "يا إلهي ، أن يموت المرء في العراء بكل هذه البنادق. ومتى؟! عقب استيقاظه من قيلولة" نزل أحد الضباط وقال لي مباشرة:

- إذا أخبرتني أين نجد الجبهة، أعطيتك هدية تعجبك.

رددت:

- لا أعرف، إنهم لا يأتون إلى هنا مطلقا.

قال:

- ولكـــنّ الرعاة الآخرين أخبروني، إنهم رأوهم في هذه الناحية.

أجبته:

- لا علم لي. لقد كنت نائما، ولم أشاهد شيئا.
- ومـــتى كانـــت آخـــر مرة رأيتهم فيها؟ لا تكذب. أجب بصراحة.
- بدايـــة الخـــريف الماضي، أجبت. استراحوا على حافة النهر لساعة ثم شربوا ماء وانصرفوا.
- ولم يكلموا أحدا؟ سألني
- لا أحد، أجبت.

قال لي:

- أنت تكذب.

ثـــم خلع خوذته العسكرية ولطمني بها على وجهي. كنت أعـــرف أنه هو هذا المسخ الذي تظهر عضلات وجهه متشنجة جـــراء تعطشه للدماء، هو هذا بلحمه ودمه ابن الكلب الجنرال سمرت "عنكر هيلى قمام[1]".

---

(1) عنكر: بلغة التقري تعني، الجرو. وهيلي قمام، تعني، هيلي الأشعث.

عدنـــا مـــن النزوح إلى بلدة (بركنتيا)[1] المحترقة في موسم الحصاد، لكننا لم نحصد شيء، لأننا ببساطة لم نتمكن من الزرع. فالجيش الإثيوبي كان يجوب كامل "عنسبا" منذ الصيف الماضـــي، ولـــم يـــندحر إلا منتصف هذا الربيع، عقب معارك قاسية شنتها عليه جبهة تحرير إرتريا.

موســـم حصاد العام الفائت أيضا حرمنا منه. حيث أحرق الجيش محاصيل الذرة الحمراء والبيضاء ومحصول الدخن فوق البيادر وبعضها صار طعما للأرضة بعد أن سقط قصب الحقول الذي ظل واقفا لأشهر مزارع الفول السوداني جففها الصيف ثم جـــاءت ريـــاح اكتســـحت أوراقهـــا وأعوادها الهشة من وجه الأرض، وظـــل الفـــول تحت التربة عاما ويزيد، لينبت بطريقة مفرطة في عشوائيتها، حين هطلت عليه أمطار الخريف التالي.

وكانـــت القوارض والسناجب التي تكاثرت بعشوائية هي أيضـــا تنـــبش طبقة التراب بحثا عن حبات الفول محدثة آلاف الحفر الصغيرة فوق الحقل الواحد.

ســـيقان نبـــتات الخروع والكركدى البري وقفت عارية. ثمـــار الطمـــاطم في الأماكن المخفية تحت ظلال العرائش بدت مغرية، ظهرت أعشاب لا تتوقف عن النمو ونباتات جديدة.

---

(1) بركنتيا: بلغة البليني تعني، أرض المرأة الحكيمة.

ولوج الغابات كان يتطلب حذرا مضاعفا، إذ صارت أكثر غموضـــا، وخطـــرا بســـبب الثعابين التي تقضي ليلتها ملتفة في الفـــروع، لتصـــحو مـــنزعجة عند طلوع الشمس. طيور الهدهد "الـــزناب"، كانـــت تحلق باحتفاء قرب رؤوس العائدين. وطيور وعصـــافير يبدو إنها أيضا كانت قد هاجرت، وعادت توا. طفقت تنشط في طقوس لا تفسر.

الطريق القادم من كرن، والمار عبر وسط بركنتيا ليصعد إلـــى (حلحـــل) احتلـــته جزر خضراء، أخفت هيئته وصار لا يعرف عما يحيط به من خلاء.

بالنســـبة لـــي ولمـــريم كانت العودة محملة بالإدهاش. الطبـــيعة التـــي تبدلـــت، خاصـــة جـــبلا (كرفوف الكبير) و(كـــرفوف الصغير) في خضرتهما اليانعة، بحيث لا يمكن الآن العـــثور على بقعة عارية فوقهما، حتى الصخور حجبت. والنـــبع على السفح المقابل لبركنتيا والذي (يجلخ) من قرب قمـــة كـــرفوف الكبير ليغور من جديد إلى أعماق الجبل عند خاصـــرته تغطي مساره بالطحالب (سببا) وافترشته أغصان نبتة "التسس" التي تفوح رائحتها الذكية حين تطأ عليها الأغنام.

فـــي طريق العودة كنا نصرخ فرحا، كلما لاحت لنا من بعيد معالم جبلا كرفوف أو قمم أشجار وادي "طليم مايو" كانت تثـــيرنا المشـــاهد الجديـــدة التي لم نألفها، لكن ما انقبضت لـــه قلـــوب الناس كان مشهد أطلال بركنتيا. كنا أنا ومريم أول من دخل إلى البلدة المنكوبة بعد عام ونيف من الغياب. تداخلت فيها الأطـــلال وتلاشـــت حدودهـــا. بوابـــة المدرسة كانت مخلوعة ومطمـــورة في الأرض. خمنت أن العربات العسكرية قد مرت فوقهـــا. وكـــان قـــد استحدث بناء المدرسة الحجري الملبن منذ سنوات قليلة على ذات موقع المدرسة القديم التي كانت صورها معلقة على جدران المكاتب.

كانت الصفوف الدراسية عبارة عن غرف خشبية متلاصقة (صـــندقات) يحيطها صور مستطيل من نباتات "الغلاميطوس"، الطاردة للأفاعي كما يعتقد. في حين انتصبت في الفناء شجيرات ليمون.

التقطـــت معظـــم تلك الصور بمناسبة حفل الافتتاح (بداية الأربعيـــنات على الأرجح) جمعت إلى جانب المعلمين والأعيان ضـــيوف مـــن خـــارج البلدة. وكان يأتي تلاميذ من قرى وبلدات أخـــرى بعضها بعيد جدا ممثل قرية "مرجن" الجبلية و"وعلم أمير"

وبـــيوتات متناثر على جانبي وادي عنسبا. مضينا نحو الفناء الذي كـــان مغطي بالحصى، وقد نمت فوقه الآن النجيلة، كانت أبواب الفصـــول محترقة، فناء بيتنا غير البعيد الذي انمحي من الوجود، احتلت موقعه أعشاب وشجيرات قصيرة مخضرة. عثرت بصعوبة علـــى موقع "عرقي" النوم ورحت احفر في الأرضية هنا وهناك بحثا عن علبة حلى أمي الذي خبأته هناك قبل المذبحة بأسابيع ولم يتسنى لها الوقت لأخذه يوم اضطررنا للهرب. لم أعثر على شئ بالرغم من إنني قلبت كامل أرضية الغرفة. قلت لمريم: "سنعوض أمي يوما عندما تنفلق تلة بركنتيا وترمي بكنوزها.

نظـــرت مريم نحوي بابتسامة ترجمتها "إذن أنت تصدق هذا؟".

كنـــت أشير بالكنز المخبأ فى باطن تلة بركنتيا الذي يقع بيتـــنا أســـفلها للأســـطورة القديمـــة التي تقول: (أن هذه التلة المســـتطيلة ذات الصـــخور المائية، تخفي في باطنها أسرة من ذهـــب، بقوائـــم من ياقوت، وعوارض من لؤلؤ. ستتنفلق يوما لتنبـــثق مـــنها تلك الأسرة عندما يبلغ عدد المواليد الذين يرون الـــنور فـــوق تراب بركنتيا عدد تلك الأسرة بالتمام والكمال.) ورغـــم أن الذين رأوا النور هنا يعدون بالآلاف إلا أن التلة لم تظهر عليها علامات انفلاق. وحتى الفقهاء والسحرة لم يجازفوا

بأحكامهم نفيا أو تأكيدا لما تقوله الأسطورة. وكانوا مثل غيرهم ينتظرون أن تضع التلة مولودها العظيم.

وما كان يلفت النظر هي تلك التلال من المخلفات والنفايات التي خلفها الجيش قبل أن يهرب. أجزاء واسعة من ساحة مقايحو حولت إلى مكب. ومكب آخر حول محيط شجرة الهجليج التي كانت تتشمس فوقها الصقور وهي تراقب فرائسها من الفلاليس قبل أن تنقض عليها، وكنا كلما خطف فلوسا نعمد إلى اصطياد الخاطف بإغرائه بقطعة من اللحم مرشوشة بالساعوط نقذفها في الهواء فيتلقفها صياد الفلاليس ليسقط بين أيادينا مخدرا بفعل الساعوط.

والحقيقة أن لا أحد رجع إلى البلدة، بل أقام الناس على أطراف المزارع فعائلتنا مثلا، سكنت في بيت قديم يتوسط مزرعتنا غير البعيدة عن بركنتيا، بناه جدي قبل نصف قرن من أخشاب متينة. وقل ما كنا نلجأ لاستخدامه في الأيام العادية لأن قدمه وهيكله الضخم الذي يشبه تلة جرداء، لم يكن مغريا لاتخاذه مكانا للإقامة. أما الآن وقد تبدل الحال، فإننا لم نجد بدا من الإقامة فيه. كانت مساحة عريضة في السقف عارية قال أبي وهو يرممها: "أحدثتها صاعقة" عام وبضعة أشهر قضاها أهالي بركنتيا لائذين بجبال (عنسبا تحات).

حيــنما ســمعت أمي الصراخ ولعلعة الرصاص، خطفت أختـــي الصغرى وخرجت من الدار مهرولة، كنت أنا واقفا في الفناء مصعوقا بما كان يحدث: "هيا، أمامي... اجري بأقصى ما تستطيع.. اليوم فقط أنت محتاج لرجليك..." جريت أمامها عبر الــدرب الترابـــي خارج القرية، رأيت حمارنا ريفاي قريبا من الطريق أحضرته بسرعة ووضعت عليه أمي المحتضنة طفلتها فوق ظهره العاري "لم أذكر في يوما ما أن أمي ركبت حمارا".

تمكنــت بعض الأسر من الإفلات من المحرقة بأعجوبة، أمـــا الذين كانوا يقطنون في موضع القلب من البلدة فقد ذبحوا جمــيعا وبعضـــهم القي بهم فوق النيران. القرى المجاورة مثل "لـــيخمرا" و"علـــم أمير" أحرقت وتشرد سكانها في حين أخليت القـــرى الواقعة ضمن نطاق "قوس سنسن" حالما تلقت نبأ سعار الجيش واتجه الجميع صوب عنسبا السفلي.

ظللنا طوال ما بقي من ذاك النهار ونصف الليل نمشي بلا هــدى، لحقـــنا بمن سبقنا في الخروج وتخيرنا المبيت على رمل ملتقـــي أوديـــة. أضـــجعت ليلتها فوق الرمل ونمت كالميت. لما استيقظت في الصباح ذهلت من كثرة الخلق الذي لم أر لــــه مثيلا مـــن قبل، كانت هناك أبقار كثيرة، وإبل أكثر وأغنام. لم أنهض مباشرة، لقد تطلب مني وقتا أطول حتى أستوعب ما أرى. دخان

الطهي كان يتعالى من نيران المواقد المتناثرة في العراء، وكانت هناك ملابس وحصر نشرت فوق أشجار، رجال نهضوا لحلب الإبل والأبقار، وأطفال يستيقظون بالبكاء. أحد الرجال حذر من نهيق الحمير العالي قائلا: "سيرشد العدو عنا" كما أنه لم ينس أن يحذر من "إشعال النار ليلا".

كلما تقدم النهار كانت صورة ما جرى للبلدة تتوضح مع كل وافد جديد من الناجين. كانت المأساة التي حلت على السيدة "جميلة" خالة مريم محمود مروعة بحيث أنها أكلت أرواح الناس ولا أذكر أن أحد قوى على الصبر لسماعها دفعة واحدة، كان الناس كل الناس يهربون من سماع التفاصيل مكتفين بما سمعوه عن موت جميلة.

كنا على أبواب الحصاد، مع شروق الشمس يغادر الفلاحين صوب المزارع تضمهم طرقات عريضة تتخلل الحقول، يتبادلون تحايا الصباح والسؤال عن صحة الأهل. ومضغ أحاديث سابقة حول الحرب الدائرة في البلاد يمضون عبر تلك الطرقات لتقودهم إلى دروب صغيرة يتسللون عبرها إلى حقول الذرة التي نضجت لحمايتها من الطيور. كان الواحد منهم يمضي حاملا مقلاعا يرمي به الحجارة من أماكن عالية أو من فوق الرواكيب.

جاء ذلك المساء ليقضى على كل شئ. انتهت كل الآمال وكل والأمنيات التي كانت تراود الناس، بأن يجعل حيواتهم آمنة ومســـتقرة. ونتيجة للخوف والتوجس الذي عايشوه طوال أشهر مضـــت ألغـــي معظمهم المواعيد التي تضطرهم للسفر خارج الـــبلدة، وحتى الأعراس العديدة التي كان قد رتب لها مطلع هذا الصيف، أجلت إلى أجل غير مسمي، إذ فهم السكان بطريقة ما، إن مظاهـــر الحياة الطبيعية والهادئة قد أصبحت مجرد صورة من صور زمان.

لقـــد ولـــىَّ زمن الرقص والغناء وزمن المبارزة بالسيوف وشـــك الحراب في الهواء، ولي زمن سباقات الهجن واستعراض الجياد، كل هذا قد ولي وجاء زمنٌ آخر لا أحد يعرف كيف جاء؟

أصيل ذلك المساء، شاهد السكان القريبين من مدخل البلدة غـــبار عـــربات الجيش يرتفع وراء القصب العالى الواقع خلف المقبرة غير البعيدة عن المدخل سرعان ما وصلت أول عربات مفـــرزة قـــوات "الكمندوس" تنهب الأرض وفجأة توقفت وسط ســـاحة "مقايحو" التي تتوسط بركنتيا بجلبة وأزيز، وراح مئات الجنود يتراكضون بأحذيتهم الثقيلة مطلقين صيحات مقيتة.

بـــدأ إطلاق النار حاصدا كل من كان في الساحة، خاصة حشد النساء والأطفال عند مدخل الطاحونة وداخل دكان (محمد كنتيـــباي) وعـــدد مـــن الرجال كانوا يتأهبون لدخول المسجد. تـــوزع الجـــنود في البيوت مدشنين مارثون الدم والنهب، كانوا يـــبادرون بالتجرنـــية "قنزب، ورقى" مال، ذهب. وحتى عندما يأخذون المال والذهب لا يتركون أحد، الكل كان منذوراً للموت ذلـــك المســـاء. كانوا يمدون أذرعهم إلى ما يضعنه النساء في أنوفهن وآذنهن من أذمة وأقراط، كانوا يقدمون على قتل النساء ثـــم يبترون الأيدي بالبلطات ليستخلصوا منها الأساور الذهبية. وفـــى الغالب كان يشترك كل اثنين من الجنود في الدخول إلى المنازل مرددين "قنزب، ورقي". وعندما لا يجدون شيئا يعمدون إلـــى تهديـــد النســـاء بقـــتل الأطفـــال لإجبارهن على إخراج المدخـــرات. وحين كانت إحداهن تقسم بعدم امتلاك أي من هذه الأشياء يجتثون بالبلطات ثدييها.

كـــان الصـــراخ يتعالى من كل مكان، ولاحقا أخذ ينقطع نهائـــيا، فـــيما يـــبدو أن الظرف العصيب أوعز للمغدورين أن الصراخ مقابل كل هذه القسوة والوحشية إنما يسئ للضحايا على نحو وآخر.

جـــري كـــل شئ بعجلة مثل هذا الظلام الذي تقدم وغطي الـــبلدة. أحـــد الأطفـــال الصغار لما باغتوه في الزقاق لم يحاول الهرب، مضي قدما ولا يدرى إلى أين؟ لكن لم يفته أن يمد لأحد الجنود ما كان معه. كانت حلية صغيرة وضعتها أمه العاجزة في يـــده قبل أن تدفع به للخارج (لو صادفوك أعطهم هذا). خطف الجـــندي القطعـــة مـــن يد الطفل. ثم ركله ركلة صعدت به إلى السماء وفي ثواني تحليقه هذه رأى أنحاء من البلدة وقد أصبحت كتلة من النيران والشرر حتى تصور في نفسه الصغيرة، إن مياه الأرض كلهـــا تعجز عن إطفاء قيامة النيران هذه. وحين لامس الأرض، كان ذلك المشهد هو الذي أغمض عليه عيناه.

كانـــت المجـــزرة تكراراً لمجازر أخرى جرت في بركة والقـــاش في " منصورة " وفي مرتفعات "الساهو" و"الأساورتا" وبـــلاد "الكازيـــن" وكانت جثث الضحايا تظل في العراء تتغذى منها الذئاب التي لم تعد تستسغ أي طعام سوي لحم البشر، ففي حين هربت بغية حيوانات الغابات من أمام رائحة البارود والدمٍ وهجـــرت موطـــنها. ظلت الذئاب تقتفى أثر الجيش، أينما حلّ لتدخل بعده إلى البلدات والقرى المخربة لأكل الجثث.

ثمــة امرأة شابة حبلي كانت محصورة وسط فناء يجمع داخلـــه عدة بيوت امتدت إليها ألسنة اللهب. أخذت تتطلع حولها بعينيــن هلعتيــن باحثة عن مخرج خلال سياج اللهب، أحست خلفهــا بحــركة وقف لها شعر رأسها. استدارت واجفة فرأت خــلال اللهــب ظليين لجنديين وقفا متباعدين لطخت ملابسهما بدمــاء ضحياهما كانا ينظران إليها فقط دون أن يتحركا وراحا ويحصــيان مقــدار الحلي التي تمتلكه المرأة الفارعة (شجرة الثروات) قال الجندي لصاحبه. كانت تضع على أذنيها ذمامان كبــيران و"قشاية" في الأنف وقلادة صدرها في سلسلتها الذهبية و"ضــعفت" مربعات ذهبية حول عنقها واثنا عشر "ونجير" في معصميها ستة في كل معصم وخواتم مرصعة بالأحجار حاولت منذ قليل أن تخلع بعضه لتتنازل عنه لأول من تصادفه، حاولت ذلــك مــرارا لكــنها لم تقدر، كانت واهنة ومحطمة. رأت في أعينهم تدافع أنصال الموت.

هتف (بالتجرنية) في صاحبه لما رآه يخطو نحوها:

- توقف.

ظنــت أنــه يخاطبها بتلك اللغة التي لا تفهمها فتراجعت مرتعبة.

قال الجندي الأول لرفيقه:

- لا تفكر. إنه لي، الحلى لي وحدي.

- أي لعنة نزلت عليك؟. قال هذا وهو يتمخط، لا أرفض مناصفته معك يا هذا و إلا..

نظـــر الأول في وجه المرأة وهو يزفر كموتور ثم هبط بعينيه إلى بطنها المنتفخ وقال أخيرا:

- الحلى لن يكون إلا لواحد منا فقط؟

أصبح الفناء حلقة نار، دوار فظيع اجتاح المرأة أرغمها علـــى الجلوس فوق الرمل وتمنت في تلك اللحظة لو أن هذين الماردیـــن يتركانها لحالها. آه ما تمنته هو المستحيل. والأكثر استحالة هو رؤية أمها الحنون التي ماتت بلا صراخ.

تأهّب الجندي الثاني موّجها بندقيته ناحية الأول، ظناً منه أن صـــاحبه كان يرمي بكلامه أن يصفي أحدهما الآخر أولاً، ويفوز من ينتصر بحلي المرأة التي رأت أن لغة الحوار بينهما أخذت تزداد حدة ويكثران الإشارات نحوها، الأمر الذي فسرته أن أحدهما ربما يعترض على الآخر الذي يصر على قتلها. أنه أمل المغلوب الذي تراوده حدوث معجزات اللحظات الأخيرة.

– لا يا كاسح الرأس. صرخ الأول، عندما أقول لن يكون إلا لأحدنا، لا يعني أن يكون لي بالضرورة، قد يكون لك. نعم، قد يصبح هذا الأحد أنا أو أنت. هل فهمت؟

– كـــيف ســـيتم هذا؟ أنا لم أفهم شئ مما تقوله. قال هذا وخطا نحو المرأة في خطوات أرادها أن تكون الأسرع من خطوات صاحبه الذي تحرك نحو المرأة التي وقف الآن قربها، لا أتمنى أن يكون من نصيبك.

بعصـــبية أشـــار الأول بإصبعه إلى بطن المرأة المنتفخ وقال:

– إن كان ولداً فالحلي لك، وإن كانت بنتاً فهو لي. أتفهم هذا؟ أتوافق؟.

قبل أن يهز برأسه بالموافقة، أمسك لثوان تنفسه. وكذب نفسه أن كانت الرعشة الباردة التي أحسها أسفل عموده الفقري حقيقية، وراح يزفر ويشهق انتظاراً لنتيجة الرهان.

طـــوال الفـــترة التي استغرقها هذا الحوار بين الجنديين كانـــت المـــرأة على اعتقادها أو أملها في أن أحدهما كان يلح علـــى قـــتلها بيـــنما الآخر كان يستميت في منعه إلى أن رأت أخـــيراً أن الـــذي كانـــت تعـــتقد أنه في صفها يتراجع للوراء

ويصـــوب نحوها رشاشه. فجأة انشق من بين الشرر والدخان ضـــابط الوحدة وأمسك بيد الجندي الذي كان يهم بإطلاق النار وقال:

- انـــتظر. لقد سمعت كل ما دار بينكما وأنكما ابتدعتما طريقة جيدة لحسم الخلاف، لكنكما فاتت عليكما نقطة هامة كانت ستشعل ولا شك الخلاف بينكما، وقد تصل بكما للتقاتل. ماذا لو كان ما في بطنها توأماً أو أكثر؟ ألم تتحسبا لذلك؟.

كـــان الإطـــلاق قـــد توقف تماما إذ يبدو أنه لم يتبق أحد لـــتطلق علـــيه، وكانت جثث الضحايا متناثرة هنا وهناك وكان الجنود يحومون حولها يفتشون في الجيوب عن مزيد من المال. فـــيما اســـتمرت الحـــرائق بتأجج مضيئة السماء وسفوح التلال القريبة ظلت المرأة المنطوية على نفسها في قعدتها على الأرض وهـــي تحملق برجاء في أن ينقذها حضور الضابط وإن لم تكن مطمئنة للهجته المحايدة.

بـــدت الـــنار الآن تخمد رويداً رويداً ملقية على التلال ألوانـــاً شـــاحبة، فيما ظلت أعمدة الدخان تتلولب صاعدة عن الأطـــلال، وبانـــت أحجارها متصدعة. انهدم مبني الطاحونة

والمدرسة الوحيدة فقدت أبوابها ونوافذها واسودت جدرانها بالكامل، مخازن الغلال احترقت وتحولت محتوياتها من الحبوب إلى كتل كبيرة متفحمة وملتصقة ببعضها البعض.

- لا بأس. قال الضابط، إن كان ما في جوف المرأة توائم أو أكثر فالحلي يكون من نصيبي. ألا ترون أن هذا فيه نوع من العدل؟.

هزَّ الجنديان رأسيهما بالموافقة. ومن فوره أومأ الضابط للجندي بأن ينهي الأمر. أطلق على رأسها وعلى صدرها عدة طلقات لم تكن أنفاسها قد خمدت بعد لما تقدم نحوها في جمود ثم انحنى عليها وأخذ يشق بطنها بمديته الطويلة. ثوان قليلة واندفع كل محتويات بطنها للخارج وساحت فى التراب ليظهر الجنين وسطها. رفع رأسه فاغرا فاهه في وجه صاحبيه فيما يشبه التكشيرة عرف منها هذان أن صاحبهما ربح بالرهان.

بعد لحظات ترددت فى الأنحاء صافرة حادة هرول إثرها الجنود نحو العربات وقد ضم كل منهم خوذته التي حوت المال والذهب المنهوب إلى صدورهم حضر كل الجنود. غير أن الفائز بالرهان لم يحضر، حكي فيما بعد أنه أضاع طريق العودة وتاه في متاهة النار ومات.

حالمـــا عاد الجندي الذي فقد الرهان إلى " مقلي ". بكت أمـــه وودت لـــو أن رحمها لم يستقبل تلك النطفة. هجست في نفسها وهي تنتحب " ليتني كنت أرضاً بوار ". بكت أم الجندي حـــتى شـــارفت علـــى الموت. كانت تود لو أنه يصمت، لكنه واصل أمامها استعراض حلى النساء المغدورات. قال لها:

"هـــذه الأســـاور بالكاد خلصتها من معصم الإرترية... كانـــت مقتولة... بترت كامل الذراع... ثم لجأت لترقيقه بكشط اللحـــم من عليه " بالشابلة " ثم انتزعت الأساور.. وهذه أزمة هلالـــية... انظري إليها... إنها ذهب صاف. هيا... كفى عن البكاء... ما الداعي للحزن عليهن.. لم يكن مسيحيات يا أمي.. لقـــد كن مسلمات.. نعم كلهن مسلمات.. أما هذه الأقراط. قال بعـــد أن ابتلع ريقه وهو يرفع الأقراط أمام عينيها. قطفتها كما تقطـــف الـــثمار مـــن الفروع العالية... كانت واقفة... وكانت طويلة... ماذا يعنى أن تقاطرت من أذنيها بعض الدماء طالما أننى سأقتلها في نهاية المطاف. "

بكت الأم، وتغطّى وجهها بالدموع. بكت في ذلك المساء طويـــلا وقالت لـــه أخيرا رغم إنه كان يود أن يحكى لها عن أعمال أخرى شارك فيها أو أمور سمع بها أو رآها بأم أعينه. وكانـــت حكاية خسرانه للرهان لصالح جند من الفرقة الحادية

عشـــرة ستكون أم الحكايات. أرجأ سردها لتكون كخاتمة لكل الحكايـــات. كان يود أن يحكى عديد القصص التي فعلها جيش "نقوس نقستي" إلا أنها قاطعته بالقول:

- أرحل أنت أو أرحل أنا.

قال بدهشة:

- لم يتوجب على أحدنا الرحيل؟

- لن أمكث هنا مع مجرم.

صـــمت قلـــيلا وهو ينظر إليها باحثا عن كلمات تكون مرضية لهذه المرأة المتزمتة لتعدل عن قرارها المفاجئ هذا.

عـــرض علـــيها أن تأخذ ما تشاء من الذهب ومن المال الـــذي أخرج بعضه الآن. رفضت بغضب، ولما لم يرحل هو تركـــت المنزل بعد أن أقسمت أنها لن تعود إلى هنا أبدا مادام هو على قيد الحياة.

رحلـــت ولم يسأل هو عنها، ولم يعرف أحد أين انتهت بالتحديد. بيدا أن خبراً قديماً وموثوقاً به قال. (إنها انتهت إلى ديـــر مـــنعزل ومهجـــور في جبال "أكسوم" وقالت "ليوسوس كرســـتوس" كمـــا ينقل الخبر القديم ،"أنها لن تغادر الدير حتى يموت ولدها الجندي". ويذهب الخبر أن الموت وقع في ظرف

أسبوع واحدا فقط من وصولها للدير ولم تسمع هي بخبر موته هذا إلا بعد مضى نحو ثلاثة أعوام ، وعندما عادت أم الجندي إلـــى بلدتهـــا سألت عن مكان قبره فدلها بعض الذين حضروا مراســـم دفـــنه إلـــى مكانه. وفى الحقيقة لم يكن قبرا بالمعنى الصـــحيح للكلمـــة. يقال أن الناس الذين حضروا الدفن بالكاد أحدثـــوا فـــى نهاية الأمر شرخاً بسيطاً في الأرض مددوا فيه جسد الجندي وغطوه بطبقة رقيقة من التراب وغادروه منهكى القـــوى. وحســـبما يحكـــى أنهـــم ظلـــوا يحفرون فى الأرض بـــلا جـــدوى دون إحداث أي تقدم يذكر وأنهم استهلكوا أدوات كثيرة تكسرت جميعها بسبب من صلابة الأرض.

جزءاً من النهار ومعظم الليل أمضوه في محاولة يائسة، يقـــال إن رجلاً كان حاضراً ساعتها حكى، إن الرجال جربوا عدة مواقع ليحفروا فيها وإنهم كانوا يحفرون عدة قبور في آن وحـــد طمعا في حدوث معجزة بتجاوب الأرض. لكن الأرض كانت في قساوة الفولاذ للحد الذي جعل بعضهم يهمس للبعض الآخـــر " أمـــنا الأرض ترفض استقباله " ومما يقال أيضا إن القســـيس الـــذي حضـــر لإتمـــام مراسم الدفن وترتيل مقاطع مـــن الكـــتاب المقـــدس ظل مشوشاً، وهو يشاهد عناء الرجال وأخيراً غادر المكان وهو يهز رأسه عجبا.

وقفــت الأم فوق ما قيل لها انه قبره ، وبعض إن رسمت شــارة الصليب تمتمت بكلمات، قال الرواة أنها سألت ربها أن يأخذ جثة الجندي الدنسة من هنا ويلقى بها إلى جهنم فورا.

ونقــل الذين حضروا لحظتها أنهم رأوا كأن تراب القبر، ارتــج وهبط في الفراغ الذي خلفته الجثة. ونقل عن امرأة قالت أنهــا كانــت حاضرة. أنها رأت عظام الجثة تسحب إلى عمق غابــة مجاورة وهناك في العمق تماما شاهدت ألسنة نار لاهبة بدايتها على الأرض ونهايتها في السماء. وأقسمت يقول الخبر، أن الــنار كانــت ســتطالها هي نفسها التي لم تمت بعد. وإنها لا تدري حتى الآن هل تلك النار أنطفأت أم ما تزال مشتعلة؟

مــع انحدار قرص الشمس، انفكت "كتمة" الجو التي ميزت نهــار الــيوم، وبدأ تيار الهواء البارد في الطرف القصي للبستان يعتلي أشجار الباباي العالية ملاطفا ثمارها الناضجة. كان (صالح جميل) ميكانيكي "الموتورات". واقفا فوق الحد الفاصل المعشوشب بين أشجار الباباي، وأشجار البرتقال. عندما سمع صوت السنيور "كانــتونى" وزوجته السنيورة "مدلينا" آتيا من عمق البستان. كانت الســنيورة تحمــل علــى ذراعيها طفلتها ذات العام الواحد، التي أعطيت اسما مسيحيا محليا هو "سابا". كانت حرارة الأيام الماضية قد تركت حبيبات وردية محمرة الرؤوس على بشرتها الرقيقة.

مضى صالح جميل إلى حيث وقف الزوجان وبعد أن ألقي علـــيهما التحـــية رافقهمـــا في جولة قصيرة (لتتعرف " سابا، أو ســـابينا، أو ســـابينايو، أو " ســـابونا " خلالها على أشجار وثمار البســـتان). ســـاروا معـــا فوق بساط الأعشاب الخضراء الغضة متتبعيـــن جـــداول المـــاء الذي كان ينسال تحت أشجار اليوسفي والليمون.

بعـــد انـــتهاء الجولـــة عادت السنيورة بطفلتها إلى منزل العائلـــة المقـــام قرب المدخل الرئيس وهي تردد كلمات أغنية عاطفـــية "بالتجرينيا" عنوانها "سابا سابينا" كانت قد فتنت بلحنها الشجي، ومنها أخذت أسم وليدتها.

يقول المقطع:

سابا، سابينا

آنـي

وآي أنـي

كفتوكي

وآي أنـي.

وترجمته:

سابا، سابينا

أنا الويل لي أنا

كم أحبك.

ضـــحك جمـــيل من لكنة السنيورة التي سمعها تقول لـــه بالإيطالية:

- لا تنســـي غدا عيد ميلاد بنتي، أريد أن يحضر الحفل أكبر قدر من الأطفال.

- اطمئني سنيورة، ستمضي الأمور على ما يرام.

كان السنيور (أولتراك) جد السنيور كانتوني، قد قدم مع طلائـــع المستعمرين الطليان. في القرن الثامن عشر، واتخذ من كـــرن مكانـــا للعيش. وبدأ فور وصوله باستصلاح قطعة أرض خصبة على نهر عنسبا. وقد لاقي المشروع نجاحاً باهرا مكن أو لـــتراك مـــن توسيع نشاطه الزراعي. وحين وافته المنية تم دفنه قـــرب أول غرســـة وضعها في البستان، حسب وصيته الخطية. وواصـــل ابـــنه الأكـــثر انفـــتاحا على سكان البلد، وأعمق فهماً لظروفه الحالية في العناية بالبستان.

قـــال كانتونـــي بعد أن وقف في مواجهة جميل وبصوت أقرب للهمس:

- يـــا جمـــيل، الكل يحكي أمامي عن الحرب، إلا أنت، لماذا؟. ألا تشغلك كالآخرين؟.
- ومن لم ينشغل بها؟ ألا تري كيف أنها تقلب حياتنا؟
- جاءني الليلة البارحة رجال من جبهة التحرير.
- أتقول جاءوني؟.
- أجل.
- وماذا كان غرضهم؟.
- حددوا مبلغاً من المال على دفعة شهريا كمساهمة، كما أنهم أبلغوا الشيء نفسه لملاك البساتين الإيطاليين.
- وهل وافقت؟.
- بالطبع وافقت.
- هل تحس إنك مرغم على قبول ذلك.
- لا تعنينـــي السياسة في شئ، لكنني أرى في النهاية أن ذلـــك مـــن حقهم. أنا أعرف قدرا كبير من تاريخ هذا البلد وأرجو أن لا تستمر معاناة الناس طويلا.
- ترى كيف سيكون موقف الإثيوبيين لو علموا أنك تمنح مالا للجبهة؟.

- أظن أن الإثيوبيين على دراية بما يجرى.
- والملاك الآخرين؟ هل وافقوا؟.
- الجميع تقريبا عدا السيد "بربروني". ولا نعرف ما سيتخذونه ضده.
- أعتقد ستوجه له ثلاثة إنذارات ومن ثم يتصرفون.
- كيف تعرف ذلك؟.
- سمعت كلاماً كهذا من قبل.
- أنت مطلّع على أمور كثيرة.
- أشياء مثل هذه لا تخفي.

عقب حوار المكاشفة هذا، افترقا عند البئر. ذهب السنيور إلى منزله، في حين

نزل جميل درجات البئر القليلة لمعاينة "الموتور" ومستوى الماء. بعد ذلك التقط من الأرض، علبة الشحم، والمكبس، وبقية الأدوات المتناثرة وأقفل عليها داخل صندوق معدني مستطيل وخرج ماشيا صوب مسكنه بجوار منشأة المخازن التي أقيمت على بقعة مرتفعة وسط البستان حالما وصل جلس وسط الفناء ليتوضأ.

كانـــت الشـــمس قد انحدرت وكان يتوقع أن يُشاهد هلال شـــهر رمضان مساء هذا اليوم، قال ممازحاً زوجته ملوكة بنت ناير:

- إن كنـــت تعتقدين بأنك ما زلت شابة، انظري إن كان هناك هلال في السماء أم لا؟.

- سأجده إن كان هناك حقا. ولا أحتاج لشهادة منك على شبابي.

- هيا إذن.

رفعـــت رأسها تتطلع إلى السماء. جميل أيضا راح يبحث عن الهلال وقد أزاح عمامته قليلا إلى الوراء.

هللـــت المرأة بعد برهة حين رأت الهلال قائلة وهي ترفع راحتـــي يديها المفتوحتين باتجاه الهلال: "هيلل هذه يدي اليمنى، هيلل هذه يدى اليسرى. مبروك وكل سنة أنت وكل الأهل بخير".

- كل سنة وأنت طيبة يا بعلتي العزيزة.

جاء أطفالهم الثلاثة يتراكضون حين سمعوا تهاليل أمهم. وكان جميل يجوس ببصره في الفضاء وحين رآه قال:

- وجدته أخيرا. يا سلام.

الأطفال أيضا كانوا يرغبون في رؤيته فانحني عليهم والدهم مقربا وجهه من الوجوه الصغيرة مادا ذراعه على امتدادها باتجاه موقع الهلال. كركر الأطفال فرحا حين تمكنوا من مشاهدته.

خرج قبل العشاء قاصدا المدينة لقضاء بعض الشؤون. وظلت نوريت الصغيرة صاحية رغم تقدم الليل عازمة ألا تأوي إلى الفراش قبل عودة أبيها لتطرح عليه أسئلة كانت تنسي طرحها في مرات سابقة.

قالت لأمها التي كانت منهمكة في تلميع زجاجة الفانوس:

- يمه. سأنتظر عودة أبي، سوف لن أنام، هل تسمعينني أمي؟.

- حسنا. أنت حرة... سنراك إن كنت تقدرين على مقاومة النعاس.

- لن أنام، سأنتظره لأسأله.

- ستسألينه؟ عن أي أمر؟ ثم ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح؟.

- أخاف أنسي.

- تنسين ماذا؟

- الأسئلة.

- وما نوعها أسئلتك هذه يا حبي؟.

- عن الناس الذين قتلوا.

- قتلهم جيش هيلي سلاسي يا بنيتي.

- هل كانوا من اللصوص؟.

- لا، يا بنتي. اللص هو هيلي وجيشه.

- والرجال الذين ماتوا. هل كانوا ينون استرجاع المسروقات؟.

- أجل. هذا صحيح.

- وماذا كانت المسروقات؟.

- التراب. التراب.

- وهل هناك من يسرق التراب يا أمي؟ هل يُسرق التراب أصلاً؟.

- إنه الطمع يا بنتي، هل فهمت الآن؟.

- لـــم أفهـــم إن يســـرق هيلي التراب. لماذا لم يطلب من الـــرجال القلـــيل منه؟ فلو أنه فعل، وقال لهم أعطوني ترابا، لأعطوه، أليس كذلك يا أمي؟.

- لا، يا بنتي ومَنْ يعطي تراب يرقد تحته عظام الأجداد؟ ثم إنه ليس لنا غيره. نحن من غير هذا التراب لا شئ، عدم.

- آه فهمـــت الآن... تـــراب... لا... سأبصق على وجه هيلي عندما أراه ولن أتركه يأخذ ترابنا.

فـــي مساء اليوم التالي انساب عبر بوابة بستان أو لتراك أسراب من الأطفال لحضور حفل عيد ميلاد سابينا. جلسوا على مقاعد حول طاولة مستطيلة. بينما جلست السنيورة وطفلتها على مقعد عند رأس الطاولة وإلى جوارهما السنيور كانتونى. ارتجل الأطفـــال خليط من الأغاني أهدوها كلها (للعزيزة) سابونا في حين غنت الأم أغنيتها الأثيرية "سابا سابينا" وسط تهاليل وتمايل كانتوني والأطفال.

قدمـــت بين استراحات الغناء المشروبات الغازية وقطع الســـردين، امتنع بعد الأطفال عن تناوله خشية حدوث عواقب مجهولـــة. أمـــا مشروب السنيور والسنيورة فكان من زجاجة

عملاقة حين رجتها اندفع المشروب محدثا ريح عاصفة ورغوة ظلت تتكسر ببطء.

حيـــن عاد أحد أبناء صالح جميل عقب الحفل دفعته أمه إلـــى خارج الغرفة نحو الفناء الخارجى ووقفت هناك سادة أنفها بذيـــل طرحتها تحث الصبي على غسل فمه ويديه. قالت وهي تقترب منه لتتأكد من زوال رائحة السمك:

- إنهـــا لـــيس على فمك ويديك وحسب، بل وعلى ثيابك أيضـــا. ابعد، ابعد من هنا. اخلع هذه الثياب، وتأكد أنه لن يغسلها لك أحد، وإنها فرصة لتتعلم الغسيل حتى.

ولمـــا خطا الصبي باتجاه الغرفة ليبدل ثيابه صاحت فيه ملوكة:

- إلـــي أين؟ ابق مكانك. لن تدخل. بدلها هنا في الخارج. وإذا لـــم تـــزل هـــذه الرائحة لن تنام معنا أيها الجرو. أواه... مـــا أقواها من رائحة. مؤكد، لم تكتف بازدراد تلك الكائنات المسكينة، بل وتمسحت بمرقها أيضا أنا لم أُخطئ صح؟.

- لا يا أمي لا أحد يفعل ذلك. أكلنا على طاولات، البعض أكل بالمعالق والشوك والبعض لا. هذا كل ما في الأمر.

كركـــر الصـــبي في وجهها وهو يقرب راحتي يديه منها.

– ابعد يا ولد.

مـــنذ أن طلـــع عشية البارحة لم يعد صالح جميل، الأمر الـــذي قلقـــت لـــه زوجته ملوكة كانت الوحيدة التي تعرف أنه يعـــيش أيامـــه علـــى حافـــة الخطر، منذ أن عرفته أيام الكتلة الاستقلالية ونشاطه السياسي لم يتوقف.

جـــاء فـــي آخر الليل من يبلغها أنه تم اعتقاله وبحوزته مناشـــير ســـرية. وأنـــه موجـــود في معتقل " فورتا " الخاص بالبوليس السري.

تلقـــت ملوكـــة النبأ بشجاعة المرأة الصابرة التي تعرف ماهـــية مـــن تقترن به وكانت تعرف أن زوجها يعد أحد أعمدة جبهة تحرير إرتريا في كرن.

أحضـــروه إلـــى المركـــز مقيد بالسلاسل. وهناك مزقوا جلـــبابه.. عروا كتفيه، ثم تناوب المحققون يتشممون كتفيه مثل كلاب مدربة.

هـــتف المحقـــق الأول بعد أن ألصق منخريه على الكتف العاري:

- رائحة حديد... هنا رائحة حديد... سلاح.

- ثم وجه حديثه للرجل " أنت من أنت؟ أنت... مخرب... مخرب "

قال المحقق الثاني الذي كان قد انهمك يشم أصابع إحدى كفى الرجل وهو يدقق فى هيئة الأظافر:

- هنا أيضا رائحة سلاح. هذا الرجل تعامل طويلا مع السلاح.

ثم جثا على ركبتيه وراح يمصّ بعض الأصابع ويرفع من آن لآخر رأسه ليخاطب الآخرين:

- لا نحتاج لأدلة أكثر من هذا. إنه مخرب.

وهكذا عقب ليال من التعذيب والإذلال استخدمت فيها أحدث أدوات التعذيب إلى جانب أكثر الأدوات بدائية تقرر إحالته إلى المحكمة، وهناك في مقر المحكمة ضُم إليه عدد من المتهمين السياسيين ضمنهم نساء ليحاكموا بالجملة وحشروا في القفص مقيدين بالسلاسل.

جلس الضباط الثلاثة خلف طاولة مستطيلة عارية، ووقف المتهمون بقيودهم خلف القضبان في حين انبث جنود مدججين هنا، وهناك وسط حشود الناس الذين حضروا لمتابعة سير المحاكمة.

أعطــي الضـــابط الذي ترأس المحاكمة الإشارة بالبدء ثم نودي على المتهم الأول صالح جميل.

وبعـــد أن حـــدج الضابط ناحية المتهم تحدث بالأمهرية موجها كلامه له:

- الآن وقـــد اعترفت نريدك أن تسمعنا اعترافك هذا مرة أُخرى.

نقل المترجم كلام الضابط ثم انتظر.

- نعـــم، طبعت منشورات كثيرة ووزعتها. هذا ما فعلته. قـــال صـــالح وهو يأتي بحركة من يديه المقيدتين كمن يفلـــت أوراق في الهواء. هل تريدون أن أكرر هذا مرة أخرى أيها الخنازير؟.

بوجـــه ممـــتقع ترجم المترجم قول الرجل، وما أن انتهي حـــتى دخل بعض الجنود إلى القفص الحديدي وراحوا يوسعونه ضربا.

قال الضابط:-

- أنت هنا بتهمة حمل السلاح. لا المناشير.

- أين الدليل؟.

– رائحته على ثيابك. وعلامات حمل الحديد على جسدك.

– أنا أتعامل مع الحديد. مصلح بوابير.

– لا يهّم الآن قبل إصدار الحكم عليك، ما هو طلبك الذي تـود تقديمـه لنقوس نقستي؟. نطق القاب الإمبراطور بصـوت حبّي ثم أضاف وهو يتطلع إلى الجمهور تارة وإلـي المـتهم تارة أخرى، " أضمن أنه سيخفف عنك الحكم ".

تـرجم المترجم مقلدا ما أمكنه نبرة الضابط. وحين تفوه باسـم الأمبراطور وألقابه همست امرأة لمن حولها: "لو تقطعت أمعاء الإمبراطور لن يسترحمهم جميل".

تحـدث المـتهم بصوت عال: " أتريدني أن أطلب العفو، الـرحمة، لمـا أطلب الرحمة أو العفو حتى. لست نادما على ما قمـت به والآن لا أريد من (نقوسك) هذا إلا طلب واحد فقط. وهـو أن يـزيل صـورته هذه ويرحل من بلادى " وأشار إلى صـورة النقوس التي كانت تحتل جزءاً من الحائط. وحالما نطق المـتهم بهـذه الكلمـات فرقعت القاعة بالتصفيق والهتاف بحياة إرتريا وامتدت موجة الهتاف إلى الذين كانوا يطلون على القاعة عـبر الـنوافذ. بعصـبية كبـيرة راح الضباط الثلاثة يستحثون

المـــترجم بالإسراع في ترجمة الذي سمعوه يلعلع بما قاله المتهم. وبعـــد أن أكمـــل نهض الضباط وأمر الجنود بإخراج الناس من القاعة فانقضوا عليهم ركلا وضربا بأعقاب البنادق.

صرخ الضابط رئيس المحكمة بحنق: " بداية من اللحظة لن تجري أي محاكمات وراح بنطق بأحكام مزاجية قاسية. كان ينادى على المتهم أو المتهمة ويوضح التهمة ويتبعها بالحكم.

صالح جميل، الانتماء إلى عصابات مسلحة، إعدام.

علـــى قـــرورة. منشورات، سبع سنوات سجن. ولما همَّ المـــترجم للترجمة منعه الضابط قائلا: "لا داعي، ليس مهما أن يعـــرفوا". وواصـــل إصدار الأحكام: "محمد درماس إشاعات. (نســـي نطـــق الحكم) سالم موت حرى. رسم مشين لجانهوي عشـــر ســـنوات، حليمة منسعاي. غناء محظور، عشر سنوات. نور الدين ناود، كتابات محرضة على الجدران، تسع سنوات.

نقاش إبرة. خياطة ملابس للمخربين، مؤبد.

بعـــد يوميـــن علـــى الـــنزوح علمـــت أن الرجال كانوا يتشـــاورون للذهاب لتفقد البلدة ودفن الضحايا. قررت أنا أيضا مرافقـــتهم. جادلونـــي طويلا في إن أبقي "المهمة للكبار فقط"، ولكن عندما سمعوني أقول مصرا، (أريد أن أجلب مريم) التي

أصـــابتها "صـــدمة" جـــراء فاجعة مقتل خالتها، وإنها لم تبرح أطـــراف البلدة وظلت طوال اليومين الماضيين تنتحب هناك في انتظار مغادرة الجيش.

وبعد أن حذروني من مشاق الرحلة، ومما قد أرى وافقوا على أن أرافقهم. انطلقنا مع شروق الشمس يتقدمنا الأستاذ سعد حاج وبعد أن قطعنا نصف المسافة عبر طريق "كرن – سروا" تخير الرجال النزول يسارا إلى نهر عنسبا ومن ثم الاقتراب من البلدة عبر المدخل الشمالي. بلغنا تخوم البلدة بعد الزوال. وأول أمر صدمنا لـــه كان مشاهد إحراق البيادر التي كانت محاصيل الـــذرة مكدســـة فوقهـــا. كانت روائح الذرة المحروقة تعبق في الجـــو، وفـــي الظـــلام الذي حل منذ بعض الوقت عددنا زهاء عشرين بيدرا كانت تشبُّ فيها النيران.

متخفيـــن بـــالظلام وبحـــذر شديد اقتربنا من المدخل قرب المكـــان الـــذي كان في السابق موقعا لإقامة احتفالات الحصاد. انبثقت مريم فجأة أمامنا. مشعثة ومجهدة وبلا صوت وخالية من الروح تقريبا. بعد جهد فهمنا منها أنهم مبثوثين في كل مكان وأن دوريـــاتهم الـــنهارية تصـــل إلى هنا، ويقضون الليل في الغناء، وإطلاق الرصاص بلا سبب.

رأى الرجال أن لا فائدة من البقاء هنا وقرروا المغادرة. وهكذا رجعنا ومعنا الفتاة.

الأسابيع الأولى كنت أجمع فيها أغنامي وأغنام صديقتي ريثما تمر صدمتها وأمضي بها للمراعي. جاء المناضل حريراى القيادي في الجبهة ومعه عشرة من المقاتلين كنت أعرف بعضهم من أيام عنسبا، اجتمعوا مع النازحين وتدارسوا حول شتى الأمور ومنها فتح مدرسة تحت اسم "مدرسة التحدي" تعين فيها الاستفادة من المعلمين الذين نجوا من المذبحة. وكان معلمنا المحبوب "سعد حاج" أحد الذين نجوا. وكلف بالبدء في تخير موقع المدرسة.

من فوره، راح المعلم يدرس المنطقة ويفاضل بين أنسب الأمكنة، ليستقر أخيرا على موقع غير بعيد تعلوه رابية وتظلله أشجار كثيفة. تم إعداد المكان بتوزيع الصخور على أرضيته كمقاعد يجلس عليها التلاميذ، وأسندت السبورة على جذع صفصافة عالية. كذلك تم تكليف العم " قبريس" أن يقوم بمراقبة الطريق ومجرى عنسبا من فوق التلة التي تعلو "مدرسة التحدي" إلى أن فوجئنا ذات يوم، عقب أربعة أشهر من الدراسة الهادئة، بتحليق طائرة استطلاع إثيوبية فوق المدرسة عدة مرات. هدأ المعلم من روعنا، وأمر إخلاء الموقع بسرعة وملازمة

الأشـــجار، وعدم السير فوق الأماكن المكشوفة. بعد أن غادرنا المدرســـة فــك هو حبال السبورة من على جذع الصفصافة ثم ربطها على ظهره ورحل. وما أن مضت نصف الساعة أو أقل، انشـــقت السماء عن مقاتلات حربية وراحت تدفن المدرسة وما حولها بالقذائف.

توقفـــت الدراســـة ليومين فقط، أعد خلالهما الأستاذ سعد مدرســـة تحـــدي جديـــدة. كانت هذه المرة داخل مغارة جبلية حصينة، وتخير السيد قبريس موقعا مثاليا للمراقبة بالصعود إلى قمـــة شـــجرة "دعرو" عالية. تشرف على الأودية والسهل الذي يحتضـــن الطريق، ولا بأس أن يلقى ببصره نحو صفحة السماء من وقت لأخر، عله يشاهد بريق معدن الطائرات. واذكر أيامها أطلـــق علـــيه بعض التلاميذ الخبثاء "س. ق. ر"، "سيد قبريس رأدار".

بعد قضاء شهرين آخرين فى الدراسة، وبدخول الخريف دخلنا في عطلة طويلة. أمضيناها في الرعي. واجهت النازحين مشـــكلة نقـــص الحـــبوب، ولكن خفف من انعدامه وجود اللحم والحليـــب بكثرة. وهذان بالطبع، لا يسدان مكانة الحبوب، وكم كان الواحد منا يشتاق للوك لقمة العصيدة أو "القراصة" الصلبة.

عرفنا أسابيع مملة من التطعم باللحم واللبن. كنا نلجأ فيها أنـــا ومـــريم للـــوك صمغ الغابة إلي أن شهد المرعي ذات يوم احتفالاتنا الصاخبة حين جاء إلى المرعى رجلا مرسل من قبل أبـــي وناولنا "ربعيت" الطحين، كان سرورنا لا يوصف بالرغم من أن الرجل لم يجلب معه علبة "الكبريت".

قلـــت لرفيقتـــي. مـــاذا ســـنأكل؟ لا توجد لدينا لا أواني ولا نار؟. لكنني سأتذوق الطحين على أي حال. ورميت كمية من الدقيق إلى فمي، كان لذيذا وبه طعم ما يخلفه حجر الطاحونة.

قلـــت في نفسي، لا بد أن أصنع أكلة "البركتة"، ولابد أن تـــتذوقها هـــذه الراعية ومن فورى نهضت إلى شجرة "قندعى" كانـــت تـــرقد يابســـة أخـــذت منها فرع غليظ وعود آخر أدق وأصـــلب بريـــته مثل القلم ثم ثبت الفرع الأغلظ على الأرض بقدمى ورحت أفرك عليه براحتي يدى العود، وبسرعة توهجت بقعـــة نار فى قعر الفرع الغليظ وارتفع منها خيط دخان واهي. وضعت على بقعة القعر المتوهجة أعشاب رقيقة وجافة، ورحت أنفخ عليها حتى تولدت منها شعلة كبيرة سمعت أثرها زغرودة عالية أطلقتها فتاة المراعي، فرحا بامتلاك النار البدائية.

جلبـــت أعـــود ســـنط كبيرة ووضعتها فوق الشعلة التي تأججت. عجنت مريم كمية من الطحين على سطح صخرة بعد أن غسلتها، وضعت فوق الجمر اللاهب حجرا كرويا وانتظرت إلى أن احمر ثم غطيته بالعجينة على كامل دورانه ثم أعدته إلى الجمر. رائحة عابقة لا مثيل فى حلاوتها نشرتها عجينة الطحين التي كانت تنضج من الداخل بفعل الحجر اللاهب ومن الخارج بجمـــر السنط الصلب. راحت مريم تقلب البركتة المقمرة فوق الجمر، ولما نضجت كفاية أخرجناها ثم فصلنا الحجر الذي كانا حاميا ورحنا نأكل القطع الساخنة بلذة وبشهية.

كان الرعي ممتعاً جدا، عجل بتخفيف صدمة رفيقتي وإن كانت عيناها تدمعان كلما تذكرنا أيام بركنتيا.

كم تمنيت أن تعود لوضع الكحل لعينيها الحلوتين كما في الماضـــي. وأن تخـــرج مـــن حالة الحداد والحزن كانت تنضج وكانت دائما تعبق برائحة شهية تصيبني بالدوار ارتجف متلعثما حيـــن اقـــترب منها ويحصل بيننا ذلك التلامس الذي يكهرب. تشعر بي وأنا أوجه أنفى نحو مسامها لأعب عبقها البدائي الذي ينضـــح مالئا المحيط، تزجرني قائلة: "لقد غيرك اللجوء". الوذ بالصـــمت متحاشـــيا ملامسات أخرى، ترى هي جسدي طائرا من فوق صخور عالية لينغمس في بركة شلال، تتوسل إلى أن

لا أقـــدم على فعل ذلك مرة أخري: "ستتحطم عظامك. كف عن هذا" جسدي لا يكترث، يصعد ويطير ثم ينغمس.

عقـــب رحلة علاجية إلى "عدن"[1] ، لإخراج رصاصة قديمـــة. عـــاد (حريـــراي) القيادي في جبهة تحرير إرتريا بجـــراح جديدة وحكا يا. جراح الجسد تكفل بها أطباء اليمن، وأخرجوا الرصاصة إلا بعض الشظايا. وأما الحكايا فلا نهاية لهـــا، كانـــت هـــناك حكايا كثيرة تتخلق من المعجزات التي يجـــترحها كـــل يـــوم رفاقه من مقاتلي جبهة التحرير، وأما الجـــراح التـــي أصـــبحت تنهش في جسد الثورة وتنهكه مهددة استمرار الحلم هو الذي يتوغل في الروح ويعذبها.

إنه حلم الحرية... حلم دفعت ولازالت تدفع لـــه الأرواح.. أن تلـــك الأرواح الغالية تخان الآن. نعم ، تخان وبخسة وغدر. وممن؟ ممن كانوا يوما ما يقسمون الإخلاص لها.

إنـــه الانسلاخ أو الانشقاق... وما أقبحها من كلمات!!... انشـــقاق كلمة ثقيلة ومرعبة... لها وقع الزلزلة في النفس حين تلـــم بجســـد أحوج ما يكون للتماسك. يحس الآن بالندم لاتخاذه

---

(1) عـــدن: المديـــنة اليمنية المعروفة، كان ينقل إليها الجرحى من مقاتلي جبهة تحرير إرتريا لتلقي العلاج خاصة في الستينيات ومطلع السبعينيات من القرن الماضي.

مواقف أثناء النقاشات والاجتماعات وصفت من قبل العسكريين وقـــادة المناطق في حينها أنها داعمة أو تغض الطرف في اقله عـــن انحــــراف الرجل الذي قاد فيما بعد أول انشقاق في جسد جبهة التحرير لتصل هذه الانشقاقات لا حقا إلى ثمانية انشقاقات كـــان هو على رأسها جميعا. وهو رقم قياسي لم تتعرض لـــه أي ثورة تحررية في العالم ولقب بعدها " بمهندس الانشقاقات".

يتذكره الآن قبل نحو عام تقريبا، عندما قدم للخرطوم، في طريقه إلى عدن. تقابلا هناك فى مكتب الجبهة بحي (الجريف شرق). كانت الكريمات تعكس لمعة شعر رأسه ونظرات اللؤم من خلف زجاج نظارته السميك تتفشى في أرجاء المكان.

قـــال لـــــه حريـــرأى بعـــد أن خفت حركة المواطنين الإرتريين من عضوية الجبهة القاطنين في مدينة الخرطوم الذين كانوا يأتون بتبرعاتهم أو لسداد اشتراكاتهم الشهرية:

– يــــا أســـتاذ (كروم) لماذا لا تنهض ونتمشى قليلا في الجوار. هناك أمورا كثيرة أحب أن أتبادلها معك.

نظر السيد كروم إلى ساعته ثم قال:

– لا. سوف لن نتمشى، سنأخذ تاكسي ونذهب إلى فندقي، إنه وقت الغداء ويمكننا أن نتحدث هناك.

- سوف لن أطيل معك فأنا على سفر.

- سفر؟ إلى أين؟ ومتى؟.

- ذاهب إلى عدن ، هناك صديقة تنام منذ أربعة أشهر داخل رأسي.

لم يسمع كروم من حديث حريراى إلا كلمة "عدن". لم ينتبه لعبارة "الصديقة النائمة".. أو أنه ما إن سمع كلمة عدن، حتى سدت أحاسيسه كلها وداخلته الهواجس والشكوك، وراح يتساءل في نفسه. لماذا عدن؟ لماذا؟. كان يخشى أن يكشف السر الرهيب المغيب هناك عند قبائل جبال ردفان في اليمن.

كان حريراى يلف رأسه بعمامة من الكرب الأبيض، وبدا في بنطاله الرمادي نحيلا للغاية ويظهر قميصه الذي بدا عليه واسعا مقدار اللحم الذي فقده جسده بسبب الرصاصة اللعينة. خرجا من المكتب ثم أخذا سيارة تاكسي.

- فندق "الليدو" ، قال كروم للسائق.

سألهما السائق السوداني وهو ينظر إلى وجهيهما عبر مرآة السيارة:

- الأخوة من إرتريا مش كده.؟

وقبل أن تأتيه الإجابة مضى يقول:

- نـــاس إرتـــريا ديـــل ناس مكافحين خلاص، ونحن فى الســـودان معـــاكم. شـــفتو المظاهرات بتاع اليوم. دي مظاهـــرات كـــل أهل السودان، الحكم ده شين خلاص ونحـــن أبيـــناه تـــب ، وكمان قالوا قبل سنوات حكومة السودان سلمت مقاتلين إرتريين إلى هيلاسيلاسى العمل دا ما في ولا زول سودانى وأحد يوافق عليه أبداً أبداً أبداً.

كـــان السائق يتكلم ولم يترك فرصة للراكبين ليعبرا لـــه عـــن امتـــنانهم لمشاعره الطيبة. لكن حريرأى وجد أخيرا ثغرة أثناء انشغال السائق بإشعال سيجاره وقال له:

- نحـــن والســـودان أهل، وموقفك هذا هو صميم موقف شعب السودان المضياف.

رد السائق:

- معـــروف، معـــروف. وأنا قضيت شهر العسل في أسمرة عـــام ســـتين وما حسيت أي فرق بيني وبين الناس هناك. يـــا سلام ... أسمرة جميلة جدا يا خى. كان سحاب السما يدخل لينا عديل من شباك غرفة اللكوندة. شئ جميل والله، الولـــية كانت تقول لما تشوف السحاب مغطى الدنيا "سما البلد دى قريبة خلاص".

كـــان كـــروم طوال الرحلة مشغول بمخاوفه التي ولدتها سيرة عدن لا حظ حريرأى شروده ومال نحوه قائلا:

– هل سمعت ما قاله أخونا، عن أسمرة وسحابها؟.

رد:

– نعم ، نعم. المظاهرات أليس كذلك؟.

– يـــا كـــروم المظاهـــرات هنا في الخرطوم. وليس في أسمرة. يظهر عليك الشرود ما بالك؟

– لا، أبدا ما شارد. أنا معاكم.

كانـــت الســـيارة تـــتهادى بـــبطء في طريقها إلى وسط العاصـــمة وكانت أثار ما أحدثته مظاهرات اليوم لطلبة جامعة الخـــرطوم ضـــد السلطة واضحة للعيان وكانت اللافتات على واجهـــات الـــدور الحكومية مقلبة وحزم من فروع أشجار النيم ملقية على جنبات الشوارع.

ما إن دخلا إلى الحجرة ، حتى رفع كروم سماعة الهاتف وطلب غداء لشخصين ، قاطعه حريرأى قائلا:

– لا أنا صائم، على قضاء، شكرا.

حيـــن دخـــل النادل حاملاً سفرة الطعام قابله كروم قرب الباب وراح يتفرس في الأطباق الكثيرة بلهفة ، ومن فوره قرب الطاولـــة بعد أن جلس على السرير وبدأ يلتهم غداءه. سأل وهو يلوك أخر لقمة:

- لم تقل لي لماذا ذاهب إلى عدن؟

- ألم تسمع بصديقتي التي بصحبتي؟

- لا أبدا.

اعتقد كروم أن الرجل يتكلّم عن صديقة حقيقية وليس عن رصاصة تقتات من صحته.

هـــناك حالمـــا وصل إلى عدن وجد النبأ القنبلة قال لـــه مســـؤول مكتب الجبهة وأفراد من السلطات اليمنية: (هناك من يتاجر بسلاح الجبهة). وشرح مسؤول المكتب: (السلاح الذي كنتم تنتظرونه في الميدان، ظهر هنا في اليمن، عند قبائل جبال ردفان باعه كروم ومجموعته وقبضوا ثمنه).

أصـــابت الدهشة الرجل، ولم يصدق أن يصل الطمع إلى درجة حرمان المقاتلين .

مـــا يدافعون به عن وطنهم. لقد وفر ثمنه اللاجئ والفلاح الإرتـــرى الفقير ولاجئات اضطرتهن ظروفهن العمل كخادمات للمـــنازل فـــي جدة والخرطوم كن عاشقات إرتريا وكن شقيقات للشـــهداء، وجـــاء هذا الكروم وشلته ليسرقوا هذا العرق والدماء الطاهرة.

عقـــب تلقـــيه للعلاج استغل حريراى قارب تابع للجبهة وعاد للميدان سالكاً مسارات بحرية سرية وقبل أن يلتحق بمقر القيادة. عرج على بيت عائلته في (شلاب) وسط إرتريا.

هتف في نفسه بينما كان يخطو نحو دار العائلة عبر درب امتد وسط الحشائش:

"لابـــد أنهـــم كبروا.. هذا الدرب الصغير وسط الحشائش حـــتما صـــنعته أقدامهم الصغيرة". وحالما انتهى به الدرب أمام مدخـــل الـــدار المـــنعزل الغارق في العتمة راح يصفق بيديه، اختلجـــت (ريريـــت) في مكانها بجوار الموقد، أصلحت لف "المغلمـــت" حول رأسها وانتظرت تصيخ السمع. عاود التصفيق ثم نادى:

- يا أهل الدار.

فرح عارم جاب كيان المرأة وهبت تتعثر في "المعندقيت"، ثـــم أطلـــت من الباب بقامتها الفارعة ولونها القمحي. كان يقف أمامها بكامل عافيته، أنه هو، أبو أولادها الذى هتف أخيرا قائلا:

- ريريت.

- حريرأى أهذا أنت؟.. إذن أنت بخير.. يا لفرحة أطفالي. أهلا ومرحبا، عدت إلى دارك، أنك تمشى على قدميك، شكرا لله.

ضـــمها إلى صدره بشوق، في حين راحت هي تتحسسه وســـط دموعها الحارة وتزرع جبينه بالقبل. أدخلته إلى "التكل" وهي متعلقة به. كان جمر الموقد لازال مشتعلا ، وضعت فوقه حـــزمة من أعشاب "الإراى" الذي اشتعل سريعا مضيئا مساحة "التكل" تناولت القنديل وأشعلته من اللهب فغرق التكل في بهرة مكنت ريريت من رؤية ملامح زوجها كاملة.

حركـــتها التي طغى عليها الفرح، انتزعت الأطفال من نعاسهم في الكوخ الملاصق..

وفـــى لحظـــات، كـــانوا يتزاحمون في حجره ويتبادلون التحديق إلى وجهه. قالت وهى تتطلع إليه:

- كيف هي جراحك والرصاص هل...؟

أجابها مقاطعا:

- أخـــرجها اليمنيون، أما الشظايا أحس وكأن جسدي قد لفظها من زمان.

دفعـــت فـــي الأثافـــئ مـــزيدا من الحطب وانهمكت تعد (أكلت) الدخن (البلتوب).

جلـــس الأب والأولاد يأكلون بينما جلست ريريت قربهم تحدثـــه عـــن الأولاد، وعن الحياة هنا ، وما يصلهم من أخبار الحرب.

قال لها:

- جئـــت مـــارا عبر الحقل لم أره بمثل هذه الخصوبة من قبل.

ردت وهـــي تشـــير بكلتـــي يديها إلى الكوخ حيث ذهب الأطفال يغطون في النوم من جديد:

- كرســـوا كل وقتهم للعناية به. حموه من الطيور ونشروا في أرجائه الفزاعات ، أحبوا فعل ذلك ، كنت أراهم كل يوم ينصبون المزيد منها... صمتت لبرهة حين أحست به

يلامس وجنتيها قبل أن يحيطها بذراعيه. ثم تكلمت وهي تلتصـــق به "ماذا أصنع؟ نهيتهم عندما غطوا كامل الحقل بالفزاعات حتى خيل إلى أنهم نصبوا فزاعة لكل سنبلة".

قال لها: كيف الدنيا هنا؟

ردت: أمان، أمان.

كـــان يكلِّمهـــا هامســـا وهو ينظر إليها تتملى في جسده العـــاري الـــذي غارت فيه الجروح. كان صوتها رفيف أجنحة عصـــافير عقـــب انقضـــاء الخطر، وهي تمرر أصابعها على الـــندوب. توقفت عند كتل كبيرة وقاسية عند أعلى الفخذ الأيمن وقالت:

- هذه كانت الأخطر، عندما جئتنا ذلك الصباح كانت قامتك أقصـــر. أما هذه. هذه كانت أول الجراحات، لقد أخافتني في حينها.

مع إشراقة شمس الصباح ودع زوجته ملتحقا بمقر القيادة في منطقة (كركبت)

كانـــت حياة حريرأى مضمخة بتأثيرات صوفية بعيدة لجده الصـــالح الـــذي كـــان ينام ويصحو الناس على صوته وهو يتلو

القـــرآن ويرتفع صوته بالذكر. ولو لا موت الجد المبكر لكان هو قد ورث نار الخلوة التي كانت تتقد في الليالي. خمسة أشياء كانت تـــلازم الجـــد أينما حل: المصحف، وإبريق الوضوء، والمصلاة "عـــيدو" من جلد الخروف وسبحته الطويلة، والكفن المطوي الذي كـــان يشـــتريه بنفسه من سوق "أغردت" وعندما كان يمر على الكفن حولا يهبه لأهل أول من يتوفى فى الناحية ويقتني هو كفنا آخر. وهكذا كل عام إلى أن توفي في الحج.. وحين ضعف بصر هـــذا الجـــد لاحقا كان حريرأى وقتها في السابعة من عمره ظل ملازما لـــه خمس سنوات استقر منها في ذهنه الكثير من الأذكار والمـــناجاة التـــي كان الجد يناجي بها خالقه. أخذ منه أيضا زهده وطـــباعه فـــي الصـــبر والصـــدق. إذن هذه الصوفية والبساطة والإقدام جعلت منه قائدا محبوبا وسط المقاتلين.

أمضـــيت هـــذا المساء، في العناية بحمل حديث الولادة، رفضـــت أمه إرضاعه، أو الاهتمام به. بل، حتى لم تقم بلحسه، لـــتزيل عنه الأغشية، والسوائل الكثيرة التي كانت تغطى جسده الرقيق. دلقته فوق التراب، ونهضت ماشية منضمة لبقية القطيع كـــأن شـــيئا لـــم يكن. انحنيت عليه لما رأيته يتخبط منزلقا في الرمل، أزلت عنه أجزاء من الغشاء الموصول بالحبل السري، ومســـحت عنه سوائله اللزجة. دفعت بسبابتي إلى تجويف فمه

لتسليكه، كان هو يبحث عن أي شيء يرضعه... رضع إبهامي... وأجزاء من ثوبي.. بل وحتى مقدمة غمض سكين ساعدي "كمية".

قلت له:

- "تمهل... بعض الأمهات سيئات.. خاصة عند الولادات الأولى... سأجعلها ترضعك..." كان يرتجف ويهتز جسده فوق قوائمه الرخوة.

انتظرت حتى تجففه الشمس ثم نهضت جارا النعجة ناحيته التي قاومت الاقتراب منه، لكنني تمكنت أخيرا، رغم مناطحتها لي وللحمل من تثبيت ساقها الخلفي ثانيا عليها ركبتي، ودفعت بفم الحمل نحو ضرعها الذي أخذ يرضع بنهم. لم يكن هو الوحيد الذي ولد خلال نهاية هذا الربيع. لقد بلغ عددها، الثلاثون حملا، إناثا وذكوراً. ونتيجة لصدود أمه، كان يلقى مني اهتماما زائدا، الأمر الذي دفعه للتعلق بي، فطوال أسابيع حين أعود من المرعي كنت أطلق الحملان إلى أمهاتها، ثم أعمد بحمله إلى أمه التي لانت هي أيضا. ورضيت أخيرا إن ترضعه، بل وكانت تحثه على المزيد من الرضاعة، دافعة من وقت لآخر عجيزته برفق ناحية ضرعها.

في الليل، يظل طليقا ينطنط هنا وهناك.. يعابث الحملان المربوطة... يحوم حول مرقدي بجوار مدخل الحظيرة... وحين يتعب ينام بجواري قرب النار.

هذا ما أراده أبي أن أكونه، أن أكبر في البراري. وضع علـــى جسدي قطعة قماش غير مخاطة، واطلقني خلف الأغنام. بالكاد كنت أرى أمي في الصباح تحت ضوء الشمس المشرقة، كنـــت أتملـــى في وجهها وهي تودعني، وعند أوبتي في الليل أجدهـــا منهمكة في إعداد العشاء، وانشغل أنا في الحلب وإيقاد نـــار تدفئة الأغنام وسط الحظيرة فى الشتاء. أو أتسلل خارجا، للـــتفرج والمشـــاركة في لعبة البحث عن العظمة "الشيلل" تحت ضوء القمر. أعرف مسميات الأشجار، وأعرف طعم ورقة كل شـــجر البراري. فصفقات القرط لها نكهة حلوة وطعمها عادى مع لزوجة طفيفة، وأوراق اللشم محبب وسامط، والدعرو يضر اللعـــاب، وبـــه ملوحـــة مع حلاوة في ثماره، وحبات قليلة منه تشـــبع. ويمكن لوك صمغ شجر "الغضاد" مثل الخبز، أما صمغ "العقـــبة" يلحـــم الأســـنان علـــى الأسنان، واللسان على الشفاه، ويصـــعب فكهـــا عن بعضها البعض. وأما نبات "الشلع" فثماره حلـــوة، حيـــن تنضج تكتسب لون العنب الأسود وجذعها طري وســـام. حيـــن لسعتني عقرب في البرية، لم أخبر أحدا. قتلتها

ووضـــعت جثـــتها على مكان اللسعة، سمعت مرات أن الأمور تعـــالج علـــى هذا النحو. علمتني الغابة ومنها درس عدم ترك أقـــراص العسل مكشوف. فمرة عندما كنت أطارد ثعالباً شكلت تهديـــداً لأغنامـــي. عثرت على خلية نحل داخل تجويف شجرة (عـــاريو). أوقـــدت تحتها أعشاب ولما تكاثف الدخان غادر الـــنحل الشجرة، ثم قمت بجمع العسل في دلاء كبيرة. ومن ثم حملـــت تلـــك الدلاء وغادرت، فكرت أن أعلق تلك الدلاء فوق أغصـــان شـــجرة، ريثما يحين وقت رجوعي من المرعى وهو الأمـــر الـــذي حـــدث، لكن عندما جئت لأخذ عسلي في المساء وجدت أن النحل استرد عسله وترك لي دلاء مدلاة فارغة.

جاء أبي عشية هذا اليوم من مدينة (كرن) بعد أن مكث هناك قرابة الأسبوع حين عدت من المرعى وجدته جالسا على حصـــيرة يرتشـــف قهوتـــه التي أعدتها أمي على عجل. رأيته يخـــرج من مخلاته القطنية المنتفخة بعض الأغراض ويناولها لأمـــي. كنـــت من وقت لآخر أنظر للأشياء التي لم تخرج بعد ممنـــيا نفســـي أن يكون لي فيها نصيب. ناولها قراطيس السكر والبن والزنجبيل، إبر خياطة مغروسة على قطعة ورق زهرية صـــغيرة، كـــرات خـــيوط ملونة وأزرار بيضاء قطع صابون ومكعـــبات "نيل" وفتيل عطر نوع "صاروخ" تحبه أمي. أخرج

أيضا أغراض أخرى وضعها جانبا حملتها أنا فيما بعض للخالة "سعيدة" والدة مريم. لمحت في المخلاة أيضا رزم من قمصان وسراويل "الكاكي" وعدد من المصابيح اليدوية وعلب أدوية وسجائر استغربت أن تكون بهذه الكثرة، فكرت أنها ربما تكون "للجبهة" هربها من كرن خلسة.

نادى على وهو يقول لي:

– "هاك، جلبت لك هذا الحذاء، قسه لنرى إن كان يناسبك أم لا".

حشرت رجلي اليمنى بسرعة في التجويف، فوجدت أنه يناسبني تماما. كان حذاءا أنيقا من الجلد البني المتين مع رقبة قصيرة ولينة، أين منه نعلى القديم القاسي الذي ارتجل أبي صناعته من "مطاط" لعجل سيارة قديم، ولولا الأصول التي تتطلبنى أن أكون رزيناً في حضرته لرقصت الليل بطوله.

كانت أمنيتي أن يكون لي حذاء جديد وقوي، وكنت أجاهر بها أمام أُمي مراراً وتكرارا، ولم أكن أُجاهر بها أمام أبي مطلقا، فهو وحده يعرف متى يجلب حاجياتنا ولا ينبغي على أحد أن يذكره بها. وكانت أمنيتي الأخرى أن يظهر شاربي سريعا، والذي سمعت من أصدقاء الرعي، أن حك منطقة الشنب

باستمرار بالموس تعجل ببروزه قبل الأوان. اشتريت من فوري موس "أبو تمساح" ومرآة دائرية خضراء صغيرة لها مغطى من "البلاستيك" وكلما خلوتُ إلى نفسي اقتعد صخرتي المفضلة بجانب نبع (كرفوف الكبير)، أحلق شاربي الذي لا وجود له متطلعا عبر المرآة إلى وجهي كما يفعل الكبار. وفى إحدى المساءات وبينما كنت أحلق جاء كلبي (أمبسا) على غفلة وطلع بقائمتيه الأماميتين على ذراعي الممسكة بالموس فأحدثت "شرمة" دامية في منطقة الشنب، عاقبته على إثرها عقابا عسيرا على فعلته.

لكن منذ أيام أصبت بالقنوط عند ما قالت لي رفيقتي في المراعى، عليك أن تنتظر عدة سنوات حتى تظهر لك شعيرات تحت أنفك.

قلت لأمي في تلك العشية وأنا أستعرض بسعادة بالغة الحذاء أمامها متبختراً بخطوات مختلفة الإيقاع:

– "من اليوم سأعمل أي شيئي يطلب مني، وأعرف يا أمي، كيف كنت تلحين على أبي ليقتني لي حذاءاً جديدا" قالت وهي تبتسم:

– "بعافيـــتك يا بني، وانتبه جيدا من الضباع. عندما علمت أمـــس أنك صادفت ضبع في النهار سقط قلبي "رددت:" لا تخافي على مادام معي "أمبسا". وكان أمبسا. غير بعيد يحوم حولي بلا صبر مذكرا إياي بموعد عشاؤه.

أمـــس عندما وجدنا الضبع تأكد لي أنه ما يزال على قوة بأسه وشراستة فحالما توغلنا في عمق الغابة الواقعة تحت جبل "كـــرفوف الكبـــير" أحسست بهياجه وزمجراته الكتومة التي لم تـــنقطع طـــوال فـــترة توغلنا، كان كثير الحركة يحوم متشمما جـــذوع الأشـــجار والصخور وبراز الذئاب الأبيض الذي يشبه الجـــير، وحـــتى أنه كان يقلب التراب الرطب تحت الحشائش. فكـــرت بالخروج من الغابة وعدوت أمامه كما أفعل دائما مناديا إيـــاه "هيا أمبسا" لكنه لم يعرني اهتماما، بل ظل يجوس بعصبية وتوتـــر وسط الأشجار. وبينما كنت أتقدم بحذر ممررا ذراعي اليمـــنى علـــى عـــنقه وظهره لتهدئته، أنسل أمامنا فجأة أرنب رمادي حديث الولادة، كانت أُمه وضعته داخل حفرة نمت فوقها أعشـــاب كثيفة. كان كل مرة يهم بالقفز ولكنه لا يفعل، وأحيانا يعـــدو لمســـافة قصـــيرة ويقف طويلا قبل أن يعاود العدو كرة أخرى وغالبا في الاتجاه الخاطئ. بدت لي كلها حركات تجريب واختـــبار إمكانـــياته فـــي الفرار أكثر منها عملية فرار حقيقي.

وعندما همَّ أمبسا الانقضاض عليه، صرخت فيه: "لا تفعل، هذا صغير أيها المتوحش " فكف وهو ينظر إلى الأرنب متحسرا.

تركنا الأرنب الصغير وهو يختبر لأول مرة الوقوف على قائمتيه الخلفيتين.

كنت أعتقد أن الذي أثار جنون أمبسا هو اكتشافه لرائحة ذلك الأرنب البائس وكنت أفكر أنه سرعانا ما سيهدأ، ولكنه غدا أكثر جنونا وارتفعت زمجراته منطلقة هذه المرة في إثر رائحة كأنهـــا كانت منثورة في مسار يؤدى في نهايته إلى حيث يختبئ صـــاحبها. وبعـــد عدو ودوران حول الأشجار ونزول الأودية وتســـلق الجـــروف، رأيته، وكان أمبسا يحوم حول المكان ولم يكتشـــفه بعـــد. كان ضبعا بان عليه ضمور الشيخوخة مستلقيا تحـــت شـــجيرة ظليلة طلع عليه النهار قبل أن يعود إلى مغاور الجـــبال. وكـــان الذباب يتطاير بكثرة حول فمه المفتوح، التي كانت أسنانه الحادة بائنة. همست لأمبسا: "بلع"(1).

نهـــض الذئب العجوز مقوسا ظهره ومبرزا أنيابه البشعة هجم عليه أمبسا بضراوة مفتتح معركته بعضات قوية كلها حول عـــنق الذئـــب. ولما علا نباح أمبسا وزمجراته الحادة، وارتفاع

---

(1) بلع: بالتجرى، تعطي معاني، كل عض، أهجم.

صـــوتي مشـــجعا كلبي للنيل من الذئب، هرع رعاة كثر لنجدتنا ومعهـــم كلابهم، أول من وصل كانت "حليبت" كلبة مريم أنشبت أنـــيابها على رقبة الذئب الذي سرعان ما طوح بها بعيدا محررا مـــنها رقبته. ثم جاءت كلاب رعاة أخرى تباعا، بعضها جاء من جـــبل "كـــرفوف الكبير" والقليل منها من "جبل كرفوف الصغير" وانبرت تثخن جسد الذئب بالجراح قبل أن تحاصره وتجهز عليه.

كان أمبسا لا يفارقني، فحين نكون في المراعى تكون تلك متعتـــنا. أجده في كل صباح يستعجلني الخروج معبرا عن ذلك بعـــدة طـــرق، فتارة عندما تشرق على الشمس وأنا نائم يسحب عـــنى ثوبي، أو يدعك بخطمه على رأسي، وأحيانا يفرش لسانه الرطب على صفحة وجهي ويهرب متراجعا قبل أن أرفع رأسي لأنـــه يعـــرف بحكـــم العادة أنني سأزجره. وهكذا نمضي إلى المرعي وننضم إلى مريم التي توصيني أمها دائما "أن أنتبه لها وأن أرعاها".

لكن ما كان يهمني ليس كلام "أن أرعاها" بل ما كان يهمني أكـــثر هو استعادة روح مريم المثلومة، أتدري قالت لي ذات مرة: "قـــبل الواقعة، كان يخامرني إحساس غامض كأنما ينبئني بما كان وشيكا. كان يحقن دواخلي، كنت أحس روحي تبكي".

كنـــت أريـــد مريم الضاحكة، التي تطاردني في السفوح متســـلحة ببعر الأبقار الجافة، جاعلة من نفسها فدائية في "جبهة التحرير" وألعب أنا دور جندي " كماندوس" أثيوبي والتي تكون لهـــا الغلبة دائماً. أريد مريم العنفوان التي تصارعني بعيدا عن عيون الناس بلا تحفظ وبكامل جسدها.

طوال العام الذي أعقب المذبحة لم نتفارق، نسرح بأغنامنا فـــي الـــبلاد الجديـــدة، غير أن ما كان يؤلمني حقا هو استعادة ذكـــرى بركنتيا والحياة هناك. إذ إن مجرد تذكر الماضي كان لا مفـــر مـــن اقـــترانه بالذكريات الحزينة. رأى أبى ذات يوم تهريـــب سيف جدي إلى مدينة كرن لإخفائه هناك عند ما قرر الجيش الإثيوبي جمع كل صنوف الأسلحة البيضاء. من سيوف، وحـــراب، وخـــناجر، ودرقات، وكل أدوات الزرع كالفؤوس، والمـــناجل، والمحاريـــث مـــن الأهالـــي في كل أنحاء إرتريا ومصادرتها. قال لي أبى في عشية ذاك النهار:

– الليلة أريدك أن تنام باكرا لأنني سأوقظك بعض منتصف الليل، ستذهب معي إلى كرن.

لقـــد فرحـــت كثيرا لسماعي هذا الخبر لأن هذه ستكون

المــرة الأولـــى التي سأرى فيها مدينة كبيرة مثل كرن. لكنني وجدت نفسي أقول فجأة:

– لماذا؟ ماذا سنصنع هناك؟

– لن أقول لك الآن، ستعرف لاحقا.

وبعــد منتصــف الليل نهضت على صوت أبى يوقظني وعــندما انتهيــت من ارتداء ملابسي كان هو قد وضع مخلاة وحزمتين من القش على ظهر ريفاى وانطلقنا. كانت كرن غير بعــيدة عــن بلدتنا بركنتيا، والسفر إليها في السابق كان سهلا ولا يحــتاج المرء لتدابير احترازية كما هو واقع الحال الآن، حيث يرابط الجيش في الطرقات، ويطلق النار عشوائيا، ولهذا ابــتدع الناس طرق سرية للسفر، وكان علينا إن نسلك إحدى تلك الطرق السرية للوصول إلى وجهتنا. كان الخطر يكمن في الطريق الرئيسية التي تشق "مدر بيجوك" وسهل "باشرى" حيث أقام الجيش هناك معسكراته فوق رمال السهل الحمراء.

في ذلك الليل كنا نمضي بحذر فوق حصى الطريق قبل إن نطــل على سهل باشرى الخطر. وكان ريفاى يخطو فوق الحصـــى ببطء حتى لا يصدر جلبة. وجعلني أتيقن انه يعرف

الكثـــير مما يجرى حوله خاصة عن أحوال البلاد وعن حرب الـــتحرير الإرترية. وانه بطريقة ما أدرك سبب توجس الناس ورعـــبهم. وعـــرف أيضا أنه حتى الكلاب في لحظات الخطر تتسلل إلى داخل البيوت لتقبع تحت الأسرة.

كنت خائفاً، وكنت أحاول المداراة عن أبى.. وازداد خوفي أكـــثر، حالما أصبحنا في ذلك الفضاء الواسع الذي لا يغطيه إلا شـــجيرات شوكية قصيرة ومتباعدة وكنت أحس إن ريفاى أيضا يشـــعر بالرهـــبة وكنـــت أرى أذنيه في الظلام كأنهما مجسّتان تحاولان التقاط أدنى رفات هواء السهل ذي الرمال الحمراء.

كان يسبقني بخطوات. لحقت به وقلت: (كلمني يا أبي). لـــم يكلمنـــي بل طوقني بذراعه، وأمر كفه ووضعها فوق قلبي ليختـــبر أن كان ينبض بقوة أم لا. سألني: لم تعد خائفا، صح؟. وراح يذكرنـــي بكـــبد الأسد النيئة التي أكلتها في صغرى، ولم تنزل من تحت سروالي وبقيت في بطني برهانا على شجاعتي: "لديـــك شـــجاعة عشـــرة من الرجال". ويعدد لي أسماء لرجال اشـــتهروا بشجاعة خارقة. حتى واقعة تلك الليلة البعيدة، والتي صـــنعت لي سمعة طيبة. ورأى فيها الكبار والصغار نوع من شـــجاعة، لا تتكرر إلا بعد أجيال وأجيال. لم أثق إنني تصرفت

فـــيها بالطـــريقة التي انتهت بها الأمور بدافع من الشجاعة. بل كـــان خوفـــا من العار خاصة، أمام الفتيات. ففي منتصف تلك الليلة، صحوت على عواء ضباع كأنه يوشك من قوته أن يطيح بـــأعمدة السماء. نهضت من مرقدى الذي كان في العراء، قرب مدخل الحظيرة، الأغنام في الداخل كان خوفها الغريزي يدفعها للتـــبول فـــوق بعضها البعض. وكان القمر المكتمل معلقا فوق رأســـي تمامـــا. رأيت على ضوئه عشرات الضباع تمرح في المكـــان حولي، وعشرات أخرى كان عوائها غير بعيد. حدثتني نفســـي أن ادخـــل إلـــى الحظيرة وأغلق على الباب. لكن قلبي انـــتفض رافضـــا رؤية رجل يختبئ وسط أغنام مفضلا الموت علـــى العـــار. وبينما كنت أتأرجح بين الخيارات. وفدت أعداد أخـــرى يطـــارد بعضها البعض مع عواء يزلزل أحشاء البدن. خرجـــت إلـــيها مطاردا إياه قطيعاً بعد قطيع. وبقيت بقية الليلة واقفـــا علـــى رجل واحدة إلى حين انبلاج الصباح. هذا الحدث البعـــيد الذي ما أقدمت عليه إلا هرباً من العار لم يكن ليؤكد أو يـــنف امتلاكـــي للشجاعة، التي ما انفك أبي يذكرني بها كلما ســـنحت مناسبة كهذه. وكنت أقول لنفسي. أن عدم نزول كبد الأســـد لا يعطـــي دليلا للشجاعة المزعومة. "أين هي؟". هكذا

كنـــت أتســـاءل. ولكنَ جدي حين جمعنا ذلك اليوم البعيد. أنا وأقراني من أبناء عمومتي الكثر، وأبناء عماتي وخالاتي الذين تواجدوا يومها.

أجلسنا تحت شجرة السدرة التي أمام بيتنا. وناول كل منا مضـــغة من كبد نيئة زاعما أنها كبد أسد، طالبا منا بلعها هكذا، مـــن غير لوكها. فمن بقيت في بطنه طوال النهار ولم تنزل في ساعتها فهو حتما يتحلى بالشجاعة. عندما ابتلعتها مترددا ركبني الهـــم، وكنـــت اخشي أن تنزل كما هي. ولكن جدي الذي كان يســـألني مـــرارا وهو مستلقي على سريره، ما إذا كان الكبد قد نزل أم لا؟

كنت أجاوبه:

- لا، لم ينزل يا جدي.

إلي أن قال لي عند مغيب الشمس:

- خلاص، أنت أشجع الجميع.

ونفـــس هذه النتيجة كان يقولها للأطفال الآخرين، كما أنه اخبر أبي بالأمر الذي رأيته يبتسم وكنت سعيدا بذلك.

صحيح أنه في ليلة الضباع تذكرت أنني أكلت كبد الأسد. ونجحت في الامتحان ولم يسقط الكبد، مما جعلني استدعى تلك الشجاعة وعموما تذكري للأمر لحظتها كان حاسما لجهة ثباتي.

ولكـــن وبمـــا أن الحـــياة وكذا الزمن يتطوعان بكشف الكثـــير ممـــا غمض. اكتشفت من ذات نفسي أن الكبد الذي ابتلعـــته يومها لم يكن في الأساس كبد أسد، إنما في الأرجح كان كبد خروف، أو أنه كان كبد معزة، أو أى كبد آخر لكنه لم يكن بالتأكيد كبد أسد. وأن الأمر كله كان لعبة إيحاء لعبها جدي ليغرس في الصغار ميزة محببة لدى البدوي.

أمـــا ما توصلت إلى ما وصفته بالثبات في ليلة الضباع. فـــأن أقل ما يمكنني أن اصف به نفسي الآن حين أتذكر الأمر، هو إنني كنت ليلتها بطل خرافي لم يحارب شئ. ولم يتصد لأية ضـــباع. فـــبالرغم مـــن أن الضباع كانت حاضرة تلك الليلة. وظللت أطاردها الليل بطوله فهذا كله كان لجهلي ببعض عادات تلـــك المخلوقـــات. فلو أنني كنت أدرك حقيقة الأمر لما قضيت اللـــيل كما قضيته على رجل واحدة. فعندما حكيت الواقعة بعد ســـنوات طوال بحماسة وسط جمع من المقاتلين. سمعت احدهم يقول لي ضاحكا.

– ألم تقل أن القمر كان بدرا؟

– بلى، كان بدرا.

– وتقول الوقت بدايات الربيع؟.

– صحيح.

– إذن أفهـــم. لـــم يكن في جدول تلك الضباع بندا للإغارة عليك، أو على حظيرتك.

بلبلني كلام المقاتل ورحت أستفهم:

– كيف؟

– كان ذلك موسم إخصاب. فلو أنك فتحت الحظيرة، وقلت لها تفضلي خذي أغنامي، لما اكترثت لك.

– معني ذلك كنت أطارد شيئا لم يكن يحس بوجودي؟.

رأيته يجيبني بهزات طويلة من رأسه.

قال لي أبي بعد ان أطمئن أن قلبي لا يضرب بعنف:

– والآن تريد أن تعرف لماذا نحن ذاهبان إلى كرن؟

– أخبرني.

- سنهرب سيف جدك.

قلت: "سيف جدي؟".

- نعـــم سيف جدك. كما إنها فرصة ترى فيها الأقارب هناك.

ولطالمـــا سمعت من قصص عن هذا السيف، الذي كان جـــدي يسقيه من نخاع السباع وأن حديده كان قد رق لكثرة ما عمـــل فـــي لحوم الرجال. وتذكرت قبر جدي الكثيرة الحجارة، ومقابـــر الرجال في زمانه الذين أصبح لهم صيت في الحروب والغزو. كانت ألواح الأحجار موضوعة لوحاً فوق آخر إلى أن صار القبر تلة كبيرة مثل قبر فرعوني مهمل.

- وأين هو؟.

- أنه وسط حزمة القصب.

علـــى مشارف انتهاء الليل كنا نتسلق جبل (قبسي)، يطأ ريفـــاي الأرض برفق، يسرع ويبطئ الخطا كلما رأى ضرورة لذلـــك. ومـــا عجبت لـــه هو تجنبه خلال صعودنا عبر الدرب الضـــيق المظلـــم، الاحـــتكاك بحـــواف الصخور أو التخبط في

الأخـــاديد. ذكرني بصنيعه الجميل ذاك حين كنت أصعد به جبل أمولة.

عندما بلغنا قمة قبسي انتهى الهم بالنسبة لأبي. وبدا كمن أنهـــى أشـــق الأعمال وجلس على صخرة ليستريح قليلا، ولما عاودنـــا المسير وأطللنا من فوق القمة على مدينة كرن. بهرني ما رأيت. ورحت أهتف في أبي. وأنا غير متيقن. ما إذا كان ما أراه حقـــيقة، أم أن إجهـــاد الـــرحلة صور لي الأمور مضخمة وعلى غير حقيقتها.

مـــا رأيته كان سحب من الأضواء تحتل بقعة هائلة من الأرض، كـــتلك الأضـــواء التي تظهر في السماء متخللة نجوم درب التـــبانة. فحســـبت أن السماء تدلت ونثرت نجومها فوق الأرض، وعلى أسطح المنازل وأغصان الأشجار. هتفت قائلا: "ما هذه السماء المكتظة بالنجوم التي تحتنا يا أبي؟".

– رد "هذه هي كرن".

– "وما كل هذه النجوم التي على الأرض؟".

ضـــحك وأجابنـــي: "ما تقول عنه إنها نجوم في الأرض ليس كذلك، إنها إنارات الشوارع مرفوعة على أعمدة".

قلــت مصــرا "لا، إنهــا تــبدو مثل نجوم منثورة على الأرض".

حســبت وقــتها أن قسم من السماء هوى هناك وتناثرت النجوم على ذلك النحو باذلة خيوط أشعتها البراقة في الأنحاء.

– حسنا عندما نبلغها لا تنسي أن تلتقط لي واحدة.

– سأفعل.

أخذنــا الدرب الهابط من الجبل إلى وسط (عونا)، التي كانت تصحو الآن ببطء وكان بعض عمال "شركة أنكودا لتعليب اللحــوم". يغادرون منازلهم ليقفوا على جانب الطريق الرئيسية فــي انــتظار سيارات اللاندرفر التي ستقلهم إلى مقر الشركة. وهناك على جانبي الطريق رأيت أول نجومي مثبتة على أعمدة عالية كما قال أبي. كنت أنظر إليها بتعجب. قال أبي وهو يشير بذراعه نحو نجومي الكثيرة فوق الأعمدة:

– "ما رأيك فيها؟"

– "رائعة" قلت.

مــنذ الوهلــة الأولي لرؤيتي لتلك النجوم، وحتى دخولنا

لمنزل خالي (أبدار) في حلة "وربا" كنت مخطوفا وظللت على طول الطريق أحدق على هذه الدنيا الجديدة التي وجدتني فيها.

فـــي المســـاء أخذنـــي خالي ليشتري لي الهدايا خطفتني المديـــنة من يده مرات ومرات، كنت أقف باحتفال ناظرا حولي للناس، وللشوارع ونمت ليلتي الأول في المدينة وأنا مغياظا من النوم. كنت أتمنى أن تظل عيناي مفتوحتان لتشربا عالم المدينة. كنـــت أريـــد أن أرى وألمس كل الأشياء. وعندما استيقظت في اليوم التالي لم أصدق إنني هنا حقيقة.

حالمـــاً أعلنـــت عوايـــة "شيشـــيتا" العاشرة صباحا أخذني أصـــحابي الجـــدد إلـــى محطـــة سكة الحديد لرؤية (اللتريينا) ويـــا لدهشـــتي... يا لدهشتي... ويا لدهشة أصحابي عندما يروا دهشتي تلك من أبسط الأشياء. حمنا طويلا ورجعنا لتناول الغداء.

فـــي المســـاء أخذوني إلى السينما، كنا قد شاهدنا ملصق (الفلـــم) الهـــندي الـــذي ســـيعرض مثبـــت على خشبة فوق ظهر"كارو" تجره بغلة ضامرة ومتسخة وفي عينيها بقايا دموع تجـــوب به الشوارع .عقب انتهاء العرض وقفوا بي على أبواب الـــبارات، والحوانيت لأتمكَّن من مشاهدة ما بالداخل. ويا للعالم

الـــذي رأيت!!... يا للعالم!! ومن هناك أخذوني عبر شارع به صـــفّ مـــن بـــيوت العاهرات ضج بالموسيقي. أدخلوني على (أســتوديو) تصوير وأجلسوني على كرسي بعد أن أحاطوا بي واضعين أذرعهم على كتفي وقالوا للرجل:

- "التقط لنا صورة".

ضـــحك المصور النحيل والمعروق الذي كانت سيجارته مثبتة على زاوية فمه وسألهم من خلال لعابه المتطاير:

- "من أين هبطتم على بهذا البدوي؟".

لم يعجبني تعليقه، ولا ضحك أصحابي الذين انخرطوا في قهقهات طويلة حين رأوني أرفع في وجهه وسطاي وأقربها من أنفه. خرجنا من هناك بعد أن تصالحت معه.

- "كنت أمزح معك" قال لي:

ثـــم راح يطبع قبلات على رأسي بإيماءات كوميدية وبينما كنت أجاهد الفكاك هربا من لعابه الكثير. سمعت الخبيث يقول لي:

- "لماذا أنتم البدو تأخذون الأمور على محمل الجد هكذا".

تصايح أصدقائي وهم يكركرون:

- "أنه ينعتك بالبدوى أما سمعت؟"

- "سامحته، هلا صمتم الآن".

عرجنا على مقار أندية الكرة، ومكثنا طويلا على مقاعد داخل نادي فريق عنسبا الذي كنت أسمع المقاتلين يحكون عنه بحنين. وكنت أعلم أن البعض منهم كانوا يلعبون له قبل التحاقهم بالميدان. أنشغل أصحابي في ثرثرات ومغالطات لا أفقهها حول أسباب ضياع ركلة جزاء ما، وحول لاعب من فريق عنسبا يحب اللعب حافيا. وسيرة حياة لعيبة فريق "حماسين" العاصمي العريق الذي غالبا ما يستأسد على الفرق الأثيوبيه ويجرعها مرارات الهزائم ثأرا للوطن.

حين رآني مدير النادي تائها وسط جوقة الثرثارين صافحنى قائلا:

- لم أرك قبلا هنا. هل أنت من خارج المدينة؟.

- أنا من عنسبا.

- أين في عنسبا؟

- كل عنسبا.

- هناك الآن ضيوف في عنسبا هل تعرفت عليهم؟

- نعم، وسمعتهم يحكون على ناديكم هذا.

- صحيح؟

- أجـــل، "ثم همست لـــه" وأعرف المقاتل جمجام. أخبرنا مرة أنه كان يلعب في هذا النادي.

بعـــد هذا الحوار المقتضب، أشار لي من طرف خفي أن أتبعه إلى حجرة المكتب، مضيت خلفه وهناك أجلسني على كنبة وثيرة ثم جر كرسي بعد أن وضع أمامي علبة حلوى أنيقة. تقدم حســبما علمــت لاحقــا، لكبار الزوار وللإداري ولعيبة الأندية الأخرى المنافسة.

احـــترت ماذا آخذ من العلبة التي حوت أشكال وأصناف بـــراقة. مددت يدي أخيرا وتناولت واحدة نزعت غلافها الأنيق البراق، ودفعت بها إلى فمي. وجدتها لذيذة بمذاقها الحلو ونكهة (المينتا) الفواحة.

قلت له:

- منذ أيام اجتمعت الجبهة بكل رجال عنسبا، جلسوا على الرمل نهارا كاملا أظهروا خلالها حزنهم لنتائج معركة (حلحل) وتلك الخسارة المؤلمة التي منيت بها الجبهة. خسارة الأولاد "الذهب" أو الأولاد "النجوم" كما عبر المتكلمين. وكان الجميع يختم بالقول أنهم أقسموا الولاء للجبهة وأنهم سيكونون على العهد.

وآه ... من حلحل تلك الليلة غرز وجهه بين شقي الصخرة، ومن هناك ظل ينظر للنار المتطايرة في الظلام. قدر أن المسافة التي تفصل بين المتحاربين تتقلص بين دقيقة وأخري، إلى أن عانقت النار النار. وحين فقد الرصاص جدواه جاء دور الحراب لتتصادم في اللحم.

وحكيت ما بشر به القيادي حريراى في ختام اللقاء حيث قال: "عقب حلحل تدفق الشباب على الجبهة لحمل السلاح، بحيث أنها عجزت عن استيعابهم، وهذا هو رد الشعب على معركة حلحل المجيدة".

- اصمت الآن.. قال لي:

وراح يـــتابع بـــنظره رجلا تدلي من وسطه مسدس فوق ملابسه المدنية. دخل النادي فجأة، ووقف يقول لأصحابي ولمن معهم بالتجرينية:

- كل من يناصر هذا النادي يعد نصيرا للجبهة. وهذا خطر علـــى مستقبلكم. أنصحكم بالابتعاد عن هذا النادي المارق. جل لعيبته ذهبوا للجبهة وهم الآن يتضورون جوعا هناك.

رد عليه المدير:

- هـــنا لـــيس المكـــان المناســـب للتحدث عن أمور كهذه. وهؤلاء لا يعرفون ما تتحدث عنه.

بعـــد انصـــراف الرجل الذي شعر من الجميع، أنه غير مرحب به. سمعت مدير النادي يقول لي:

- ما رأيك في رحلة إلى ميناء "عصب"؟

- عصب؟. هذه من أمنياتي. أريد أن أرى مدننا كثيرة.

- طيـــب. بعد غد تكون هنا عند العاشرة صباحا. سيذهب فريقنا لإجراء مباراة مع نادي مدينة عصب. وسندرجك كأحد المشجعين، لتحكي لجمجام وإخوته عن رحلتك مع النادي.

- ولها أيضا.

- ومن هي هذه؟

- أنها مخلوق تود لو تتعرف عليه.

- أهي رائعة لهذه الدرجة؟

- أزيد من الروعة.

فرحت لهذا العرض المغري. وخرجت لأزفه لأصدقائي الذين احتفلوا على طريقتهم بترديد أغاني وأناشيد يرددها مشجعي الفريق التي هي أغاني، وأناشيد للجبهة تنطوي على كثير من الرموز والإشارات الدالة عليها.

خرجنا من هناك. وجلسوا بي على دروج رخامية مصقولة أسفل عمارة يملكها إيطالي. قالوا لي أن اسمها، (روشان ريبا). بدا لي أن نصفها من زجاج يمر من أمامها طريق (أسمرا – كرن). انسدت نفسي من المدينة وداخلني غضب واندهاش لا يوصف في أحد الصباحات، لما رأيت أسد مكبلا بالسلاسل والجنازير فوق عربة كبيرة بلا صندوق. أحسست أن الأسد في ورطة، وأن عليّ تخليصه. كانت العربة تمضي ببطء، وكان السائق رجل إرتري غامق البشرة. وإلى جانبه رجل أشقر عاري الصدر، وامرأة أوربية حليقة.

نهضــت صــارخا فــي أصحابي أن يتبعوني، ومضيت صــوب العربة. قلت وأنا أنظر للأسد: " أنا أعرف هذا الأسد. أعــرفه. أنــه أسد منطقتي " ضحك الجميع وشعرت بلسعة من قــول أحــد المارة: "الأسود تتشابه" كنت أسير بجانب العربة، وكــان الأســد يــنظر إلى ولم أستطع فعل شيء لأجله. هربت بوجهي من أمام أصحابي الذين حيرني برودهم، وعدم تحركهم معي لنجدة الأسد.

قررت تركهم ومضيت أهيم في المدينة وحدي، حتى أنني بلغــت تخومها البعيدة لم أكن قد بلغتها معهم. وأحببت اكتشاف ذلك. تجاوزت (مقارح) ولم أعلم إن هذا الحي هو حي مقارح إلا بعد أن رأيت الطائرات الحربية الرابضة في المطار. أوقفني جــندي قبــيح الهيئة كان واقفا على مدخل البوابة وحدثني بلغة (التجرنــية) طالبا مني الابتعاد. قلت في نفسي "لو أنني كنت أمتلك بندقية لنفيت هذا الحمال من الأرض كلها".

ثم قلت له:

- أرغب في مواصلة طريقي نحو الجبل، وأشرت إلى جبل (لالمبا) الذي ينهض وراء مقارح.

- هــيا اذهــب، (رد علــي) وارجوا أن تفترسك النمور هناك.

مررت تحت نظراته الشريرة وأنا أقول لـــه بصوت عال بالعربية التي لا يفهمها:

- وأنا أتمنى لك الوقوع قريبا في كمين جبهة تحرير.

مضيت عبر درب ضيق مفروش بالحصى، ارتسمت فوق رماله الشحيحة أثار لطيور القمرى، (الكاترا).

وجـــدت أن الـــدرب عـــند نقطة ما يتفرع، إلى فرعين. أحدهمـــا يمضـــي في خط متعرج صوب لالمبا. والآخر الذي أســـلكه الآن ينحرف يسارا وينتهي عند عين ماء غرست حولها بـــيارق مـــن كل الألوان، وقد وضعت قربها قرابين ونذور من حلي بلاستيكية، وقبضات من خرز ملون، وقطع ملابس بعضها بال جدا وعملات معدنية غير صالحة للتداول هنا. لأنها عملات مـــن بـــلاد بعيدة. كان المكان مكتظاً بنساء، وأطفال. وقلة من الـــرجال. جلهـــم كهول يستحمون وقد توزعوا عراة على طول مجري العين القصير. تخيرت مكانا أقرب للعين خالعا ملابسي لأســـتحم دون أن أعرف أن هذه المياه إنما هي مياه معدنية وأن جـــل الذين يستحمون حولي يعانون علل صحية والبعض منهم جاء للتسلية.

لـــم أمكـــث هـنـاك طويلا رجعت على ذات الدرب كان الجـــندي الـــذي تمنيـــت لـــه الوقوع في كمين الجبهة لا يزال مرشـــوقا أمـــام البوابة. عبرته وكان كلا منا ينظر نحو الآخر شذراً.

تصـــالح معي أصحابي واعتذروا باسمين، واحتفالا بهذا الصلح، قرروا أخذى في المساء لزيارة بركة "شفشفيت". وهناك وقفـــت علـــى الحافة مستمعا للأصدقاء يقولون: "سباحين قلائل تمكنوا من جلب رمال قاعها".

قلت:

- "أهي عميقة لهذا الحد؟".

رد عماش:

- "أنها أعمق من السماء".

قلت:

- "أنتم تبالغون".

ردوا:

- "لا أحد يجرؤ النزول إليها إلا بمعدات الغوص".

قلت:

- "سأجرب".

صرخوا بصوت واحد: "محال، لن نتركك".

خلعـــت ملابســـي وتوجهت نحو المرتفع وسط توسلاتهم ودهشة الناس الذين كانوا هناك.

طار الجسد عاليا، ثم شق الماء محدثا فرقعة عالية حالما لامس مياه السطح كما كان يفعل فوق مياه الشلال إبان اللجوء. اندفـــع بأقصى سرعة. ولكن لا أثر للقاع. تخوم تضاء وتظلم، تخـــوم صـــماء وباردة، ولا أثر للقاع. حواف جدران صخرية غامقـــة. منحوتات كأنما دقت في الجدار واختفت خلف سرابل مـــن أعشاب شاحبة ولكن لابد من الدفع والنزول. لا عودة قبل بلوغ المدى الضائع. لا عودة. نعم، لا عودة. ظلام ومياه تغدوا أثقل وأصقع. ومشوار لا ينتهي. لا عودة. لكن يدا تلامس الآن انعـــم رمـــل عرفـــته. كان باردا مثل جليد ولكن أجمل ملمسا. خطفـــته فـــي قبضـــة وانقلـــب الجسد رامحاً للأعلى. يمضي صامتا... وهادئا فقط... متسائلاً أين الهواء؟ وأين الشمس التي كانـــت حتما قريبة من هنا؟ وأين صخور البدايات؟ لم أصوات الناس في الأعلى لا تسمع؟

تتفكك الظلمة... لكن ثقل الماء كان هو هو وأعظم ربما.. كان عنيدا وهو يتسلق الماء.. وكان الماء عاليا لا يحد.. يهمس المـــاء أستســلم... يقول الجسد الذي كان لين... لا... يواصل المـــاء بالهمس... أ... س... ت... س... ل... م... لا. وقليلا قليلا تتلاشى الظلمة... ويصير الماء أخف، وهناك الآن جلابيب وسيقان تلعب فوق الماء.. ووجوه تطل كأنما خلف أقنعة.. أنبثق الرمل أخيرا ملامسا الضوء فاتحا خياشيمه للهواء.

قـــال لـــي عماش بعد أن هدأْ من هستيريا الصراخ التي اعترته.

"لم أر أن أحداً قد فعلها".

"أحببت مدينتكم هذه يا ولد".

عمر عجيل ذهب عنه اللون الفاقع الذي اكتسبه منذ اللحظة التي قفزت فوق البركة. قال: "ماذا فعلت بنا؟" ثم احتضنني وهو يشهق.

(أبسلاب) خطف من يدى قبضة الرمل، وجعل يقفز بها فوق صخور الحافة.

أصـــغر أصـــحابي "عافة"، وقف ساكنا وسط هرج الناس بعد أن كفكف دموعه.

غادرنا البركة بعد ان تقاسم رفاقي قبضة الرمل كتذكار. رافقنا في طريق العودة صديق جديد. قدمه الأصدقاء قائلين: "هذا كميل". لاحظت، أنه كان يتأبط لوحاً رقيقاً من الكرتون وفي جيوبه حزمة من أقلام التلوين. صافحني قائلا:

– قل لهم أن يعطوني من التذكار.

أحسست بمصافحته الدافئة تلك، أن أثرها سيبقي مدى الحياة على كفي. قلت للأولاد. أعطوا الصديق قليلا من الذهب. تضاحك الجميع وهم يسقطون على كفه المفتوحة بعضا من التذكار.

عرفت فيما بعد، ان كميل أتي من الساحل مع ذويه. قتل الكمندوس والده رجما بالحجارة... أحاطوا به... اقترب منه أحدهم وراح يركله مرة تلو الأخرى... لكنه لم يسقط... كان الكمندوسي يركل... وكان كميل الأب يرسل نحو جلاديه نظرة أحسوا بها تحرق أجسادهم... تناول حجر شج به جبهة كميل الأب الذي لم يسقط... فقط وقف كعملاق... كمندوسى آخر رمي حجرا خلع به إحدى عيني كميل وآخر خلع العين الأخرى... عشرات الأيدي بدأت ترمي... لكن كميل لم يسقط... بعد أن غادر الجناة، وجدت نتف ملابسه على مساحة عريضة فوق أغصان شجيرات يابسة وتحتها أحجار ملونة

بالدمـــاء وأعقـــاب ســـجائر كثيرة فوق التراب عليها بصمات العســـكر. دائما كنت أجده منكباً على شئ يرسمه. مرة جلست إلـــى جـــواره، وكـــان يرسم غابة سوداء بالكاد نجد فيها أشعة شاحبة مبصوقة على مساحات تتخللها عيون فزعة نطت خارج محاجرها.

كانت الشمس تمضي نحو المغيب. والظلال كانت تزحف علـــى الأحـــياء الواقعـــة تحت الجبال. ناس كثر كانوا يسلكون الشوارع عائدين إلى ديارهم.

فجـــأة شـــعرت بذراع تشدني للتوقف. كانت ذراع عمر عجيل الذي سمعته

يقول لي:

- "أثبت مكانك، ابق واقفا، لا تتحرك".

لـــم أدرك ما كان يجري. الناس الذين كانوا يغذون السير منذ لحظات وقفوا كتماثيل جمدت هناك منذ الأزل. وكانت هناك موسيقي نشيد الإمبراطورية، تنبعث من مكبرات للصوت مبثوثة في أركان المدينة.

تساءلت:

- "ما الذي يجري؟"

جاءنـــي الرد " أنه توقيت إنزال العلم" وهو أيضا توقيت موت المرء بالرصاص إذا ما شوهد سائرا.

اســتمرت موسيقي النشيد نحو ثلاث أو أربع دقائق. هي الفــترات الــذي يستغرقها إنزال العلم. سمعنا قبل انتهاء النشيد صــوت رصاص أتيا من مكانين، أحداها وسط المدينة، والآخر قرب الكنيسة "الأرثذوكسية".

قـــال رفاقي بهلع: "قتل اثنين". وحذروني قائلين: "لا تنس هــذا التوقيــت هو الأخطر وكذلك، في الصباح عند رفع العلم، لا تعــتمد علـــى صـــوت النشيد، المكبرات لا تعمل دائما. هذا توقيـــت الحياة والموت عود نفسك على الشعور بأوان حلولهما. والآن أسرع، سيحل بعد قليل توقيت حذر التجوال".

دمـــاء السلخانة ومزق بقايا لحوم وجلود الحيوانات، كانت تـــندلق مـــن فوهة الأنبوب المتآكل على رمل الخور أسفل ظلال نباتات (الغلاميطوس). تمضى البقايا الدقيقة للأظلاف، والقرون المهشمة، والدماء المختلطة بالماء، وبقايا الصوف، والوبر متدفقة إلى أن تحصر تحت جرف متاخم لحلة (حرابسو) لتجف تحت الشمس عند المساحات المستوية للخور.

وهـــناك على مسافة غير بعيدة من السلخانة. بنت "فاطمة جنقريـــن" المجـــنونة كوخهـــا فوق الجرف الذي تمر أسفله تلك

الأخلاط من الدماء، والمياه، وفتافيت اللحم والقرون، والأظلاف. فعندما تهب الرياح الغربية حاملة معها روائح الأخلاط تنهض منتفضة، صارخة في الجيران، متهمة إياهم بتخريب أيامها. ثم ما هي إلا لحظات حتى تعمد إلى إضرام النار في الكوخ، وتراها تدخل إلى داخل الكوخ الذي تعالت من جوانبه الأدخنة لإنقاذ بعضا من أمتعتها البسيطة التي كانت قد جمعتها قبل أيام من الطرقات. وتظل طوال ما تبقى من النهار جالسة بجوار رماد كوخها تشتم الرائحة، وهيلا سلاسي وعساكره الذين يحرقون الناس أحياء. وقبل المغيب تشيد بأعواد قليلة فوق رماد الكوخ القديم كوخا آخر تعرشه بما توفر لها من أقمشة قديمة.

بناء كوخ جديد لم يكن يكلفها سوى كذا إغارة إلى البستان المجاور للسلخانة، أو انتزاع كذا عود من أسوار الجيران، وحفر كذا حفرة فوق رماد الكوخ القديم. ظهرت فاطمة في المدينة مع قدوم النازحين الذين وفدوا إليها في 1967 والسنوات التي تلتها المعروفة بأعوام المذابح من "عنسبا تحات" و"باب جنقرين" والقرى المحيطة بمنطق "مسحليت" وعديد قرى الساحل وبلدات "مدر منسع" و"مدر سنحيت" الذي فرضت عليها الحرب نوع من الحصار فنزح السكان إلى مدينة كرن وأسسوا حي حرابسو الذي تقيم به فاطمة جنقرين.

كانت لمدينة كرن المحاطة بالجبال والغاطسة في الخضرة حـــتى أعلـــى سقوفها نافذة كبيرة يندفع عبرها على مدار العام الهـــواء الملطف برائحة الليمون، وكانت هذه النافذة عبارة عن مســـرب مـــزنوق ينحصر بين الجبال الواقعة إلى الشمال يندفع الهـــواء عـــبر ذاك المســـرب ماسحا في طريقه البساتين لينثر الروائح الذكية فوق المدينة.

تقـــول الأسطورة حول نشأة هذه المدينة: أن الأرض في أنحـــاء الدنيا كلها كانت مترعة بالماء والخضرة إلا بقعة واحدة كانت قاحلة ومغفرة تلعب فيها ريح مسحورة ولا أحد يعيش فيها ولـــم يعـــرف أن شق الطير سمائها ولا حتى الأوابد التي كانت تـــزدحم بها الأراضي المجاورة وطئت تراب هذه البقعة. فساء الجـــبال أن تـــرى هذه الصورة وتقف مكتوفة. فتنادت من كل صوب، وأتت إلى هنا لضرب تلك الأرض، وتفجر فيها العيون. غـــير أن كل ذاك الضرب راح سدى ولم تتمكن من تحقيق ذلك الحلـــم الذي طالما راودها. ظلت سنوات وسنوات تضرب غير إن لا عيـــن تفجرت. ولما قررت الجبال بعد ذلك العجز العودة مـــن حيـــث أتت لم تستطع، كأن تلك الأرض المسحورة قيدتها بقـــوة عاتـــية، وظلـــت هناك إلى أن فقدت هي ذاتها أشجارها وخضرتها وحيواناتها التي كانت عليها.

وبعــد ردح مــن الزمــن، جاء إلى هناك أنفار قلائل من الــرجال، وعــند المســاحة المحصورة بين الجبال الوافدة. بدأوا يحفــرون الأرض لأعوام، حتى عثروا على ضرعها الذي تفجر مــاءا والــذي لـــه "طعم كطعم الحليب"، أعادت لجبل "لالمبا" و"قبســى و"أيتعــبر" و"سلاسل دبرسلا" و"كبت فورتا" و"مقارح" الخضرة والماء وكل الطيور والحيوانات التي فقدتها. ويقول الآن أحفــاد أولــئك الأوائل بتباهي. أن أجدادهم تمكنوا من أن يحلبوا حليب الأرض الذي عجزت عنه الجبال على قوتها.

انطلقــت حافلــة "قنافر" مقلة الفريق صباح الجمعة نحو عصــب. وقبل دخولنا إلى مدينة "عيلا برعد" تسني لي التعرف علــى أسماء معظم أفراد الفريق وما أذهلني بشدة هو الاستقبال الحار الذي كان يلقاه في كل مدينة أو بلدة يمر بها. وكان أفراد الفــريق يــردون علــى تحــية الحشود بتلك الأناشيد والأغاني المرمزة التي تمجد الجبهة.

حــدث هذا في مدينة "عيلا برعد" وفي "العاصمة" أسمرة و"قندع" وقبلتنا مدينة عصب.

بعد المباراة، وزع منشور سري معنون "مرحبا بالجبهة" علــى الكثــير من الناس الذين حضروا إلى الإستاد. جن إثرها جنون الأثيوبين، وقاموا باعتقالات عشوائية وسط أبناء المدينة.

في صباح اليوم التالي، قبيل الانطلاق إلى كرن. خرجت للتمشـــي علـــى شاطئ البحر ومن ثم قادتني خطواتي إلى حيث نصـــب هيلـــي سلاســـي التذكاري. وقفت هناك قربه متظاهرا بالتمـــتمة بالعبارات الواجب قولها في تحيته. والذي كان قوامها جملـــة مـــن الشـــتائم يطلقها المرء على نفسه بصوت مسموع. تصادف وجودي هناك، مع وجود رجل شتم نفسه بعد أن وقف فـــي مواجهة النصب قائلا: (أنا حمار... وابن جزمة قديمة... ولا أستحق أن أمشي فوق الأرض، ما لم أحبك يا سيدي).

وبعـــد انصراف الرجل. ظهر فجأة حيوان ثم اختفى بنفس السرعة، تابعته وهو يجوس في صف النباتات التي غرست حول أرض النصـــب إلـــى أن اخـــتفى. وما هي إلا هنيهة حتى رأيته يمشي على الأرض المبلطة. ثم يدور حول قاعدة النصب، تشمم رخامهـــا المصـــقول هنا وهناك. حملق في الجواد الجامح الذي يعتلـــيه الإمـــبراطور، وإلي ذراعه الممدودة مشيرة صوب مياه الـــبحر الأحمر. نظر في عينيه اللتين من رصاص ثم تخير مكان النقش الكتابي، رفع ساقه الخلفية وهر عليه مرات متتالية. فضلت تجاهلـــه خاصة أنه كلب ولم يفهم معنى الإمبراطور ومغزى أن تشيد لـــه النصب وأن تكون مقدسة ويجب تجنب الإساءة لها وأن تعـــامل كأنها الإمبراطور بدمه ولحمه وجبروته. حتى وأن كانت

مــن تراب وحجر، لكنه أطال الأمر. اجتاحني الخوف. قلت في نفســي. هــذا الحيوان يريد توريطي. أخذت أقذفه بكل ما وقعت علــيه يــدي من حصى ومن بعر، لكنه لم يتزحزح وراح يكمل عملـــه بثبات. والحق إنني وجدت نفسي أتواطأ معه. وكففت عن نهــره، وأحسست لحظتها أنه يفعل ما أرغب أنا نفسي على فعله. قلت وأنا أشاهده يشد جسده النحيل ويرفع ساقه وعينيه على وجه الـــنقوس. (ليفعلها، وألف عوافي عليه). لكن لما رأيت حراس النصب يخرجون من حجرة الحراسة، اضطررت لنهره. ورحت التقط الحصى لأرميه بها. رأيته يمضى بارتياح عقب فعلته التي ظللت أحسده عليها، ولما كان الحراس ينظرون نحوى، تظاهرت بالانهمـــاك فـــي كيل الشتائم إلى نفسي جهرا. وشتم الإمبراطور ســـرا، بأقذع الكلمات. وكانت عيناي تتجولان بين الكلب الذي لم يبـــتعد بعد. وبين حراس النصب الذين عادوا إلى داخل حجرتهم المدقوقـــة في الأرض. بعد لحظات، مر من أمام النصب أطفال مـــن قبـــيلة (العفـــر) بوجوه صارمة. وهم يشهرون أصابعهم الوسطي في وجه الإمبراطور.

ضـــحى المقـــاتل سراج. بشريط الأغاني الوحيد القابع في المسجلة وكبس بإصبع متعرق وملتهب زر التسجيل. وهكذا وثق جـــزء مـــن المعركة بفضل ذلك الإلهام الذي هبط عليه. وحفظ

للـــتاريخ شواهد حية لمعركة مصيرية. وقدر لنا نحن أفراد وحدة التســـليح والصـــيانة فـــي موقعـــنا السري أول من استمع لذلك التســـجيل. لـــم يكـــن فيه بداية أية أحاديث... فقط، دوي المدافع وصوت نزول الرصاص حول آلة التسجيل وهو يحفر المكان... وكـــان مـــن وقـــت لآخر يسمع لهاث سراج الذي كان ملتصقا بـــالأرض خلف الساتر وكان قريبا جدا من جهاز التسجيل. تلي ذلك صوت رمي من بندقية كلاشنكوف كانت قريبة أيضا وكانت تطلـــق طلقـــات مفـــردة، كأن بلا فواصل زمنية. لقد عددنا 28 إطلاقـــة مفردة. كان يرافق ذلك انفجارات ودوي لأسلحة مختلفة، ســـمعنا مقاتل آخر يتكلم عن خسائر إضافية تضاف إلى ما سبق أن أبلغ عنها (قبل بدء التسجيل على الأرجح).

ويـــرد عليه صوت: (عرفنا فيما بعد أنه صوت إدريس حريراى).

- اصـــمت. (كان بعيدا لحد ما)، ثم سمعنا نفس الصوت من على ذلك البعد:

- اضرب، أضرب..

خمـــنا مـــن صوته القوي والهادر انه كان يصدر أوامره لأطقـــم المدفعية من وضع الوقوف. بعد هنيهة بدا الصوت أكثر

وضوحا وهو يأمر المقاتلين بالخروج من السواتر، دللت لنا هذه الخطــوة أنـــه "تخير الالتحام مع العدو واكتساح المعسكر بأي ثمــن". وهكـــذا ســـمعنا هتافات المقاتلين وهم ينقضون خارج الدفاعـــات... انقطـــاع مؤقت في الصوت (ما يقارب النصف ساعة) ثم يعود صوته مصدرا عدة أوامر وتوجيهات للمقاتلين وسط هدير المدافع، ثم بصوت عال يأمر أحد المقاتلين:

- بـــأمك يـــا (كافل) ابق فم رشاشك مفتوحا... لا تدعه يصمت... نعم. (نسمع لعلعة رشاش) هكذا... هل أنت قادر على أن تستمر.

كـــان الجـــندي الذي يحمل جهاز التسجيل في طليعة من احـــتلوا طـــرف المعســـكر الشمالي. وكان صوت رمي بندقيته "الدتـــريوف" بجـــواره واضحا وانفجارات لقنابل يدوية وأيضا صـــوت حريـــراى يسمع ويختفي ومجموعة أخرى من مقاتلي الطلـــيعة يـــتعاملون مع أولى دفعات الأسرى: (سلم... أرمى السلاح... سلم... سلم... سلم... أرفع يداك... أخرج)

- تقدم... الغم الهاون بسرعة..

حضـــرت نجـــدة العـــدو الجويـــة لكن الالتحام الذي نفذه المقاتليـــن أربـــك الخطـــط، وعجز الطيارين تمييز مواقع مقاتلي

الجـــبهة عـــن موقـــع جـــنودهم. لقـــد أسقطت مددا من الأعتدة بالمظلات، صناديق أسلحة، رزم من الأطعمة المعلبة، قطع غيار لعربات ولدبابات سقطت أغلبها في مواقع الجبهة. عدة انفجارات دوت وهـــناك مقـــاتل فـــي الطليعة جرح وكان صوت المسعفين واضـــحا. الآن نلتقط صوت زمجرة دبابات العدو وهى تهدر في جحورهـــا الغائرة في أرض المعسكر. الطائرات المقاتلة أنزلت حمما من السماء، لكنه لم يكن ليؤثر على المعركة. تذكرت حينها قولا لأحد رفاق عواتى، قاله ذات معركة: (سلاح جو العدو هذا هـــو الأكثر فشلا في العالم. فهو عاطل تماما وبلا فاعلية، تولت طبـــيعة بلادنا إخراجه من المعركة. ولم يعد أكثر من كونه علب صـــفيح طائـــر يصـــدر أزيـــزا مزعجا يفزع الطيور. فالغابات والجـــبال الرعوم والمغارات تلك هي مضاداتنا وسلاحنا السري الأمضى وهي ملاذاتنا التي تعهدت حمايتنا).

عقـــب انتهاء المعركة دار هذا الحوار بين حريراى وأحد قادة الكتائب (لم نتمكن من التقاط أسمه غير الواضح الذي ورد فـــي التســـجيل لمـــرة واحدة فقط. هناك من قال أنه عبد القادر رمضـــان، ومن قال أنه، أدم قندفل. وآخر أكد بأن الصوت هو صـــوت، أحمد ناصر ورجح الكثيرون أن يكون هو فعلا أحمد ناصر).

قال صاحب الصوت وكان مغتبطا جدا وهو يخاطب حريراي:

– اليوم أيضا لم تستشهد، كيف حدث هذا؟ رغم أن القذائف كانت تغربل الأرض بحثا عنك.

– وأنت أيضا. رد حريراي، وهو يحتضن صاحبه. اكتفي منك الرصاص بذلك اليوم البعيد، لمس رجلك وصام عن لقياك.

– لكن قل لي، اللعنة. أنهم جلبوا عتاد حديث، لم أرَ مثله في أي معركة سابقة، أنه يفل الأرض ويحدث بها جروف وحروق هائلة. لقد عرى مناطق شاسعة من الشجر، حقا كان سلاحا غريبا يدفعك لأن تضاعف حذرك حتى ليظن من لا يعرفك أنك خائفا.

– كلما جلبوا المزيد من السلاح سيكون لنا فيه نصيب. وانظر بنفسك للغنائم.

– وسيجوع شعب أثيوبيا أكثر ويثور على جلاده.

– هذا حتمي.

كان حفل عيد الميلاد السابع والخمسون للإمبراطور الذي أقيم في حديقة قصر "أردى بياسا" المركزية بهيجا. كانت الموائد

مرتــــبة بعناية فائقة أشرف عليها أفراد من الأسرة الإمبراطورية ورجـــال من التشريفات ليتصدرها الحضور حسب حظوتهم لدى الإمبراطور ومدى قربهم منه. وكما في كل مناسبة من مثل هذه تلتئم أحيانا حلقات عفوية سواء من رجال ونساء القصر السابقين "الخردة" أو من الضيوف الآخرين حلقات تهتم بالتعاليق المرة أو بالنـــبش فـــي إحدى أسرار القصر الحساسة. وكانت الحلقة التي التأمت هذا اليوم ضمت ثلاثة رجال كانوا في يوما ما يتصدرون الموائـــد قـــبل أن تحدفهم الأقدار إلى الوراء، أحدهم كان (بلطى يقـــرهون) جســـده الضـــامر يخفى عمره الحقيقي الذي تجاوز الســـبعون عـــام. أما الثاني، يدعى (طلهون) وهو شقيق وزير الداخلـــية. كان في أسوأ حالاته النفسية وكان الكلام يفلت منه بلا حساب وكان أحيانا يضحك وحده باستمرار. ويحكي دونما قصد حـــول أشـــياء وأحـــداث ضاع بعضها من ذاكرة الإمبراطورية. ويشـــعر مســـتمعيه الآن أن الأشـــياء التـــي خبأها وطوي عليها ضلوعه من غابر السنين. أمست بالية كما جسده الذى هزل. كان فـــيما مضـــي يهجس بها بداية لنفسه، ولكن الآن بات يطلقها في ســـموات الناس دونما إحساس بذنب أو خوف، وهو يمت بصلة قرابة للأسرة الحاكمة وانتظم في خدمة القصر منذ أن اعتلى هيلا سلاسي العرش.

كـــان بمـــثابة المستشـــار لــــه ومرافقه الدائم في رحلاته للأقاليم وفترة لجوئه للخارج أثناء الحرب العالمية الثانية.

الثالـــث كـــان (ملقيـــتا ولد هنس) كان بطلاً للعديد من المجازر ضد أفراد "القالا" ليصبح فيما بعد بمرسوم إمبراطوري بطلا قوميا. كما أن الحلقة شملت عدد من الضيوف، بدا عليهم مـــن خلال ما كانوا يلهجون به من ثناء للإمبراطور. أنهم كانوا متلهفيـــن لهـــذه الولـــيمة. كانت الأحاديث متشعبة، وتارة كانت تتوقف ليكمل السيد طلهون نوبات ضحكه التي كانت لا تنقطع. إلـــى أن انفرطت الحلقة بسبب ما تناوله من حديث أكبر الرجال سننا من الذين كانوا يلهجون بالثناء للنقوس حين تطرق للكرسى الغريـــب والعجيب الذي كان يجلس عليه إمبراطورهم بجلال. وسأل من باب الفضول عن من صنعه؟

اثـــنان فقـــط من الذين كانوا بالحلقة كانا على دراية بقصة الكرســـى العجيـــب وهما العجوزان بلطى وطلهون اللذين فضلا إطباق فميهما ولم يجازفا بالتحدث حول هذه النقطة الحساسة جدا.

مرأى هذا الكرسي الذي اتخذه النقوس منذ أن جلب لهذه الـــبلاد قـــبل خمسة وعشرون عاما كمنبر رسميا للعرش يبعث علـــى الرهـــبة. فهو بأحزمته وسيوره الجلدية السوداء الكثيرة،

ومسـنديه المتينيـن. يبدو أنه هو الذي يحكم هذه البلاد، وليس الإمبراطور.

يكفـى أن تراه في القاعات الواسعة الفارغة أو في فضاء الحديقـة حتى تتيقن أن لـه عيوناً تحملق، وأذرع وحشية على وشك التحرك. وأنه دائما يضمر للناس شرا مستطيرا.

العمال الذين أنزلوه من الطائرة بالرغم من علمهم المسبق، بـأنهم سـينزلوا ضمن الأشياء الأخرى كرسي، جاء كهدية من حكومـة أمـريكا للإمـبراطورية لاسـتخدامه فـي تنفيذ حكم الإعدامات. تهامسوا فيما بينهم حين وقع عليه نظرهم. "ما هذا؟"

وبالـرغم مـن أن أيديهم لامست أطرافه بحذر شديد في البداية، إلا أنهم لم يطمئنوا لـه بالمطلق رغم أصوات التشجيع التي كان يصدرها بعضهم.

قال أحد العمال:

- "هـيا لننزله أنه مجرد جلد على حديد" لكنه بعض أن اكمل الجملة أحس أن شعر رأسه قد وقف وانكفأ عائدا.

وقال آخر:

- "أحســـه روح شـــريرة" همس عامل وهو يتراجع "به صـــوت لصدى الطرقة الأخيرة لمطرقة الصانع". إلى أن اقترح أحدهـــم أن يغمـــض الجمـــيع أعينهم ويجرجروا الكرسي نحو الأرض. وهذا ما فعلوه.

بعد أيام جن جنون السفير الأمريكي عند ما حضر للقصر ورأى الإمـــبراطور قـــد أتخـــذ مـــن الكرسي الكهربائي منبرا للعرش.

قال أحد الوزراء للسفير الغاضب:

- "ما الداعي لهذا الكرسي ما دام الرصاص متوفراً؟" قيل فـــيما بعد أن الكرسي جلب أصلا ليتم اختباره في أفريقيا أرض المـــوت الخصـــبة وأن الأمـــريكان غضبوا عندما فقدوا فرصة تجريب أعجوبتهم عندما يعمل بأقصى طاقته.

كـــان يتردد في الانصراف قبل مقابلة الإمبراطور. إذ إن أمـــور كثـــيرة، في البلاد ليست على ما يرام. ورأى ضرورة إبلاغها للإمبراطور. وكان قد حاول مرارا في مرات سابقة، أن يحظـــى بالمقابلة. وكلما فاتح كبير رجال التشريفات في الأمر، كـــان هذا يماطله في تحديد موعد رسمي بعد ما علم الأخير إن الأمر يتعلق بالمجاعة التي أخذت تحصد أرواح الناس في أقاليم

تقراى وأوقادين الغربية وقوجام، يئس من الأمر برمته وقال في نفسه (انسَ الأمر... في النهاية لست العين الوحيدة التي يرى بها الإمبراطور البلد... هناك عشرات العيون وقد ترى إحداها ما يحدث) ارتاحت نفسه لهذه الخلاصة التي توصل إليها وبينما كان يوشك إن يخرج من بوابة القصر سمع من ينادي عليه. التفت فرأى أحد الضباط يقترب منه قائلا: "سيدي الإمبراطور يطلبك".

كانت الأضواء والزينات التي نصبت في القصر والشوارع والباحات المجاورة بمناسبة أعياد ميلاد الإمبراطور تشع في المكان. وكان الإمبراطور يعشى كلبته في الحديقة الخلفية وحوله الخدم يحملون أواني الطعام. مشى كبير الوزراء إلى هناك وكانت رغبته التي جاهد من أجلها في مقابلة الإمبراطور قد تلاشت وفضل عدم الخوض فيها سيما وكما قال في نفسه "أنه لم يصل بعد للسن التي يجازف فيها بمنصبه حتى لو مات كل الشعب، ثم إن هذا الشعب يجوع كل عام ولا شئ جديد".

بدأ الوزير بالانحناء والسجود من مسافة بعيد إلى أن ركع أخيرا قرب أقدام هيلا سلاسى الذي كان يصدر أصوات لتهدئة الكلبة وهى تزدر عشاءها وقال دون أن يلتفت للوزير:

- الإمبراطورة تسأل عن ضرائب الشارع. وأنا أسألك عن سبب هذا التأخير في إيراده؟.

هـذا هو اليوم الذي كان يخشاه الوزير، وكان يدرى أن المصـيبة سـتحل به دون غيره وكره اليوم الذي جعل فيه هذا الشـارع اللعين ضمن مسؤولياته. ماذا يقول عن شحة المبالغ؟ هل يقول إن الكساد ضرب الشارع؟ هل يعترف بهذه الحقيقة؟. لا. لا الإمـبراطور ولا الإمـبراطورة يعـترفان بالحقائق أو يفهمانهـا. هل يقول إن النساء هناك على وشك إن يتحولن إلى شحاذات؟ وإن زبائنهن من الرجال كفوا عن زيارتهن بسبب من فقـرهم. وقـبل أن يجيب انحني أكثر فأكثر حتى كادت جبهته تلامس الأرض وقال متلعثما:

- لا علـيكم ، أيهـا الإمـبراطور الجليل. سأوسع الشارع وأجلب لـه أجمل فتيات البلد لإنعاشه.

بأصـابعه أصـدر الإمبراطور إشارة، فهم منها الوزير انـتهاء المقابلـة. وبيـنما كان يتراجع للانصراف شعر بفداحة خطـئه من خلال الوعد الذي قطعه على نفسه أمام الإمبراطور بإنعاش الشارع. لقد خشي إن لا يفي بشيء مما قاله، وللتملص مـن الوعـد المشـئوم تكلم الرجل بلعثمة مصطنعة هذه المرة

لـــنقوس الذي كان يربت على الكلبة التي أصابها التوتر وكأنها أحست بأن الكلام الذي سيقوله الرجل سيغضب صاحبها.

وتكلم الوزير:

– أود محادثة جلالتكم في أمر هام " قويتاى" سيدى.

أومـــأ لـــــه الإمبراطور وعاد إلى إطعام حيوانه دون ان يلتفت إليه.

– الـــناس يـــا سيدي صاروا يفدون إلى المدن الكبيرة وهم على الرمق الأخير من الجوع.

ثم صمت لحظات ورفع عينيه ليرى وقع النباء على وجه نقـــوس الـــذي اســـتقبل الأمر كأن لا يعنيه. ثم واصل الوزير. الـــريف يا سيدي أصبح خاليا، والجثث تملأ الطرقات ، وحتى المـــدن الكبـــيرة تعـــانى نقصا في الغذاء، وأحسب أن قاطنيها سيغادرونها ربما إلى هنا ليحتموا بكم.

هنا التفت الإمبراطور ناحية الوزير بعد أن أرخى الآنية التي كانت بيده وزعق في وجهه قائلاً:

– ماذا بإمكان هيلي أن يفعل لهؤلاء؟ هل يطعمهم من لحمه؟ هؤلاء الذين حملوا المشاعل يوما لإحراق عرشي. لا أحد مـــنهم كان يرغب في رؤيتي إمبراطورا على البلاد. أنهم

مجرد كلاب لا يلجئون إلى إلا عندما يجوعون... ليذهبوا إلـــى الجحيم. أغلقوا المدينة حتى لا يدخلها الجياع. أتسمع هـــا أنـــا ذا أصــــدر إلـــيك أمرنا. إغلاق أديس أبابا حتى لا تتعفن بجثثهم ، هيا انصرف من هنا الآن.

انسحب الوزير الذي كان ساجدا طيلة فترة محادثته للنقوس.

خـــرج من البوابة وهو يبحث في جيوبه عن علبة النشوق بـــلا جدوى فطلب نشقة من الخادم العجوز الذي تصادف وجوده في ركن الحديقة الشمالي. أخرج العجوز علبة النشوق من وسط طـــيات حـــزامه القماشى ووضع كمية أكبر مما اعتاد تنشقها في كـــف الوزير الممدودة والمرتجفة والذي كورها أخيرا على هيئة قرص ودفع به إلى فتحة أنفه اليسرى ليلصقه فى الجدار الداخلي.

هز رأسه جراء "الشعليلة" التي أحدثها القرص وخرج من البوابة الرئيسية حيث ركن سيارته.

أدخـــل يده في جيوبه بحثا عن مفاتيح السيارة فلم يجدها. تذكـــر الآن المفاتـــيح وعلـــبة النشوق قد سقطا من جيوبه إبان سجوده الطويل تحت أقدام هيلا سلاسي.

فضـــل عـــدم العودة إلى هناك إذ إنه لم يصدق كيف أن جانهوى لم يأمر بإطلاق النار عليه؟. وقال في نفسه وهو يتنفس الصعداء "هذه المرة نجوت يا حمار...".

أتجـــه نحو منزله سيراً على الأقدام. لقد مشى كثيراً ولم يهـــتد إلى باب بيته غير البعيد عن القصر. راح يذرع المنطقة بلا طائل، وقرر أن يعود من جديد إلى بوابة القصر وينطلق من هـــناك كرة أخرى عله يفلح في العثور على بيته. وكرة أخرى فشل ومن يومها لم يره أحد.

علـــى مـــائدة الإفطار في الحديقة الخلفية للقصر، علمت الإمبراطورة فحوى ما دار بين نقوس ووزيره.

كانت ترتدي "الزوريا" فستان قطني أبيض طويل بحاشية مذهبة تخللته خيوط طولية خضراء وشال بخيوط ثخينة من ذات خامة الفستان لفته حول رقبتها. وقبعة بيضاء فوق شعر رأسها، أظلـــت وجههـــا الذي كان يلمع كلما لامسته أشعة الشمس طبقة زيـــت القـــرنفل والمحلب، سمعت ذات مرة من الخدم إن نساء البدو يستعملنه.

الخـــادم العجوز الذي نقل إليها فحوى حديث الإمبراطور والوزير، كان يهمه أن ترضى الإمبراطورة بالدرجة الأولى عن الوزير الذي دبر لـــه أمر إلحاقه بالقصر منذ سبعة عشر عاما. كمـــا أنه حظي برعايته عقب هزة التسمم الشهيرة التي تخلص فيها القصر من معظم الخدم المؤسسين عداه هو. لهذه الأسباب كان عليه عكس موقف راعيه الودود تجاه الإمبراطورة.

وقــف الخادم العجوز متأهبا وهو ينتظر الإمبراطورة أن تأذن لـــه بالكلام التي قالت لـــه أخيرا:

- أنك لم تسمع كل شئ، صح؟

- جلا لتك... سمعت كل كلمة تبادلاها.. كل كلمة..

- ومتى تريد أن تحكى لي ما سمعت؟ عندما أشيخ؟ لماذا لا تتكلم الآن؟

اندفع يجيب:

- أجــل، أجل. سيدتي لأبدأ إذن. لقد عرض سيدي الوزير علـــى نقــوس نقســتى خططـــه لتجرية السوق وإنعاش الشـــارع، باســتقدام فتيات من كل أرجاء الإمبراطورية، وإرفاق كل ذلك بدعاية يجند لها رجال أكفاء ينشطون في الــنوادي الرياضية وتجمعات العمال والمقاهي وحتى في ساحات انعقاد الأسواق الأسبوعية.

صـــمت العجوز الذي كانت عيناه مسمرتين على المخرج الـــذي ســيطل مـــنه الإمـــبراطور عندما لاحظ هرج الحراس المكومين هناك.

- هل هذا كل شئ؟

– سألته الإمبراطورة.

– لا. سيدتي، في ختام اللقاء اتفق سيداي إن دخل الشارع سيكون كله من نصيبك يا سيدتي.

– بطام طرو. جيد جدا.

هكذا قالت بامهرية فخمة، وهى تحرر جسدها من حالة اليباس الذي كانها طوال مدة استجوابها للخادم وراحت تقلب الأمر في رأسها طويلا ورأت بعين خيالها الشارع يزدحم بنساء جميلات والرجال يملؤون البيوت وتتدفق عليها الأموال. وفكرت في نفسها قائلة:

– "عليّ متابعة الأمر بنفسي" ثم بصوت سمعه الخادم:

"سنذهب معا في زيارة".

– أين سيدتي؟ سأل الخادم.

– ستعرف. سآخذك معي.

وغمزت له إن ينصرف لما رأت مديرة القصر الشمطاء "نانو" آتية.

كانت الإمبراطورة ترى في نانو العين الباقية في القصر لعدوتيها التقليديتين "مبرت" و"قنت" وكانت دائما تفكر في الكيفية

التي تطفئ بها هذه العين، ورغم إن الإمبراطورة التي تقول عن نفسها، إنها تملك مصائر عباد أكثر مما تملكه هذه الهشة "نانو". بـــل وأحيانا إنها تستطيع المغامرة أن أرادت، كنس كل الحاشية المـــتملقة مـــن القصر والإتيان بحاشية بديلة، والتخلص من كل هـــؤلاء المهرجيـــن والطواويس، إنها تفعل كل هذا، لكنها غير متيقنة من مقدرتها على طردها.

لقد تمنت وهى ترمقها الأطباق على رقبتها والتخلص من هذه البغلة القديمة لنحاسي متيقرون المسكين المرمي في قصره بـــلا أنيس، والذي ويا للعجب، لا يزال يكن لها المودة الخالصة بالرغم من إنها طلقته بعد أن شربت شبابه وامتصت كل أمواله.

كانـــت الســـيدة نانو تدرك حقيقة كره الإمبراطورة لها، ولتتقـــي شـــرها عمـــدت على تمتين علاقتها مع السيد قرماي المقـــرب مـــن الإمـــبراطورة والمساند لها في تولية ابنها البكر ولاية العهد.

أحضـــرت نانو جدول مواعيد الغد للإمبراطورة وأخذت تقـــرأ علـــيها، كأنما تقرأ لنفسها وهي تمضغ بين شدقيها لبانة بحجم فنجان، وقد وقفت على مسافة أذرع منها.

كـــان الجدول مزحوما جدا، احتوى على زيارة لجرحى الجـــيش، واستقبال زوجات سفراء أجانب، ثم زيارة في المساء برفقة نقوس للقاعدة الجوية الخ..

أوقفتها الإمبراطورة قائلة:

– لدي جدولي الخاص ليوم الغد... كفاية انصرفي الآن.

وفـــي الغـــد بعد أن تتكرت جيدا. جلست على مقعد سائق عـــربة خضار القصر وخرجت من المدخل الخلفي ومعها الخادم العجـــوز وتوجهت إلى سوق (ماركاتو) الذي يوجد به الشارع. وبعد أن ركنت السيارة منحت العجوز عشرة "برات"، وقالت له:

– اجلـــس هناك. وأشارت إلى مقهى بالجوار. طرفت عيني الرجل وبادر قائلا:

– هل من الحكمة أن تمضى وحدك في مكان كهذا؟

– ســـأكون بخير. هيا، اذهب الآن. قالت هذا ثم مشت عبر زقاق كان ترابه الداكن قد رش بالماء توا. ولجت إلى بيت زخرفـــت واجهـــته بأكالـــيل ورود اصـــطناعية ووجدت صاحبت البيت "ويني" وهي تتجادل جدلا مريرا مع "كبدي" حـــول اختلاســـاته وكذبـــه عـــن الأثمان التي أشتري بها

الطمـــاطم والـــبطاطا والقـــرع، لكن عندما رفعت "ويني" عيناها وشاهدت المرأة التي اقتحمت عليهما الغرفة أطلقت شهقة عالية ولم تستطع استيعاب ما يجري أو النهوض من مكانها إلا بعد ان سمعت عبارات "كبدي" التي بدأ يزرعها لسانه في أجوأْ الغرفة.

كانت عباراته مشوبة بالغزل موجهة للمرأة المكتنزة ذات الشعر اللامع والعينين الخليعتين.

- أقفـــل فمـــك ياكبدي. قالت ويني وهي تنهض شبه عارية.

ولمـــا بـــدا للمرأة أن ويني ستبدأ بفتح فمها وهيئت جسدها لتتحنـــي بـــه انحناءة التحية، أشارت لها خفية أن لا تفعل. وبادرتها على الفور:

- مـــا هذه القنلة التي تطرد الرجال؟ أبهذا تستقبلينهم؟ أرني باقي ثيابك هيا.

- "أشي، أشي" حسنا، حسنا. قالت هذا وخرجت متعثرة.

أصـــاب التشوش كبدي عندما رأى ويني وهى ترتبك كل هـــذا الارتـــباك أمام المرأة التي جلست الآن على السرير وهى تجول بعينيها في أرجاء الغرفة.

كـــان كـــبدى يتساءل بينه وبين نفسه عن من تكون هذه الســيدة التـــي يبدو أن لديها سطوة علىويني وهو الذي قضى نصـــف عمـــره الأربعينـــي هنا في هذا المكان ولم يسبق لـــه رؤيتها، وبعد أن تفحصها جيدا اقترب منها ونطق:

– لم يسبق لي أن رأيتك هنا. هل أنت وافدة جديدة؟ أنا وأنا وحـــدي من سيلطف عليك العمل هنا. في البداية جميعهن يتعرضن لمصاعب جمة. كلهن في الأيام الأولى يحسسن بالغـــربة والضـــياع حتى وإن كن مولودات في الأحياء القريـــبة. أنـــت الآن فـــي المكان الوحيد في العالم الذي يشعرك بفداحة الغربة. أنا سأسهل عليك الأمر كثيرا حتى تعتادين الحياة فيه، لقد ساعدت الكثيرات.

ظلـــت المرأة تستمع لكلامه باهتمام متصنع ورأته يقترب منها ويقول:

– أشمّ فيك رائحة امرأة حقيقية.

نظرت إليه باندهاش ووجدت نفسها تقول:

– الرائحة في النساء واحدة.

– لا. هـــناك فرق كبير بين الرائحة التي تأتي بها المرأة هنا للمـــرة الأولي وبين الرائحة التي تكتسبها بين جدران هذه الغرف.

- لم أفهم. قالت الإمبراطورة.

- الأمر الوحيد الذي لا أخطئ فيه هو هذا..

قاطعته الإمبراطورة:

- تتحدث كالواثق.

- أجـــل. هنا النساء يفقدن رائحة الأنثى، هن أنفسهن يحسن بفقدهـــن لها ولا يردن أن يسمعن هذا الكلام من أحد. أقول لـــك أنـــا أكـــاد أعرف جميع نساء مكب النفايات هذا بل وأعـــرف كـــل النســـاء اللائي تركن هذا المكب وصرن زوجـــات صالحات، وأعرف من توفينَ هنا بسبب المرض وأســـباب أخـــري، مثل أن يرسل أحدهم قريبا مثلا خنجرا خلفها، وأعرف من مكثن ليوم أو يومين وأختفين، وأعرف حـــتى اللائى شخن هنا، والآن يحسسن إنهن مدقوقات في هذا الشارع وترعبهن فكرة الموت هنا.

- يـــاه... أنت تصلح لأن تكون باحثاً في هذا العالم. أراك خبيرا بهذا الشأن.

- خبرتـــي أعمـــق وأوســـع من كل ما ء سمعت. قال هذا وجلـــس بجوارها، وجدته يأخذ يديها برفق، مبحرا بعينيه

فـــي تقاســيم وجههـــا، ولما شعرت به يحيطها بذراعيه سمعها تقول لـــه بلطف ومبدية بعض الممانعة:

- "لـــيس وقـــته الآن" أنفاسه اللافحة كانت تنضج طينها، وكلمـــا أوغلت يداه في استباحة كامل جسدها تفجرت هي همسا في أذنيه.

- "أفعـــل كـــل شيء". كانت تستحثه وكان هو يمضي فيها على مهل. كانت هي تقاوم كي لا يمس ثدييها اللذين بدوا لـــــه استفزازيين في سيدة بمثل هذا السن، جال في كل أنحـــاء جسدها إلا أنها لم تمكنه من الاقتراب منهما، لكنه قـــدر أنـــه علـــى بعد بضعة دقائق منهما خاصة إذا ما تكسرت حصونها على هذه الوتيرة.

كادت الإمبراطورة أن تصاب بالجنون بسبب نهديها اللذين كانـــا يـــنز حليـــبهما من تلقائه كان ذلك عقب زواجها مباشرة، يفاجـــئها البلل على قميصها في منطقة الصدر بلا مقدمات، تتفتح حلمـــتاها وتخلفـــان بقعتين مبللتين فوق القميص. ولمداراة الأمر درجـــت على إسدال شال على صدرها. غلبتها كل الحيل لوقف الـــنزيز الذي شكل لها عقدة نفسية لا زالت تلازمها حتى اللحظة بـــرغم أن حلمتـــيها كفتا عن الانفتاح منذ نحو سبع أعوام. حينما

أطـــبق علـــيها بشـــفتيه ارتخت يداها ولم تعودا متصالبتين فوق صــــدرها، ففتح الطريق وراح صدره العريض يسحقها وجد يدها تــــأخذ عضوه وتدفع به بين فخذيها. وحالما أطلت ويني وشاهدت ما شاهدت هتفت وهي تكاد لا تصدق عينيها: "سيدتي".

جاءهـــا صوت الإمبراطورة محموما وحاسما: "اغربي. لســـت سيدة أحد". خرجت ويني بصمت تلطم وتخبش خدودها من وقت لأخر. لم تنتظر كثيرا عندما أحست بخروج كبدى إلى الشارع. دخلت على الإمبراطورة بوجه يحرث الأرض.

- هل ستأمرين ضربه بالنار سيدتي؟

ابتســـمت المـــرأة التي ظلت مستلقية في مكانها في وجه وينـــي بعينيـــن مشبعتين وأشارت لها بكلتا يديها أن تكف عن الكلام.

ظلـــت ويني صامتة. بينما راحت الإمبراطورة تحدّق في الحيطان لتعينها على استيعاب ما حدث.

- هل ستتركينه يفلت يا سيدتى؟

- لماذا أنت هكذا؟ كل ما جري هو ما يجري بين مرأة وما لا أعرف.

فتحت ويني عينيها دهشة في وجه سيدتها ثم رأت أصابع المـــرأة تشـــير إليها أن تقترب. خطت الخطوات الفاصلة مبلبلة ولما وقفت فوق السرير الذي استلقت عليه الإمبراطورة أحست بيديها تتسللان إلى تحت ملابسها تم تلقي بها على السرير تدعك نهديها وترسل لسانها الشره يطارد بلذة فلول النبض في عروق ويني المستسلمة.

ارتدت الإمبراطورة ملابسها وهى تقول:

- والآن أتعرفين لماذا أتيت إلى هنا؟

- نعم أعرف سيدتي، من أجل هذا.

- لا، لـــيس من أجل هذا. هذا حدث هكذا. وهو ما يحدث في العادة.

- إذن..

- قدمـــت... أولا قـــبل الـــذي جئت من أجله... إياك أن تخبريه من أكون أو تثرثرى مع أي كان حول كل هذا، وإذا مـــا سمعت أي ثرثرات سأبعث لك عزرائيل، هل هذا مفهوم؟.

- أعدك سيدتي.

- حسنا، ما جاء بي هنا، هو رغبة الاطلاع على سير العمل. ولكن هذا الرجل أهو صديقك المفضل...؟

- أبدا، أنه يعمل هنا لصالح نساء الشارع، يقضي لهن حوائجهن وأحيانا يطلب منه الحماية حين يأتي رجال شرسين أو سكارى، أو اللذين لا يودون الدفع.

- أيقطن معك؟

- الواقع، ينام أينما عن له في بيوت الشارع، ودائما يتنازعنه النساء اللائي يكن في حوجة إليه.

قالت الإمبراطورة في صوت خافت وتآمري:

- أريده أن يكون حاضرا هنا لأنني سآتي حتما.

أشي. أشي. "حاضر. حاضر".

كانت قرية صغيرة داخل الحدود السودانية خلف جبل (التاكا) يقيم بها عمال وملاك مزارع وبساتين الموز على ضفاف نهر القاش وعمال كمائن الطوب ولقربها من حدود إرتريا استقرت بها أولى أفواج اللاجئين حين انتشرت المذابح. ومع تزايد عدد الفارين امتدت القرية اتساعا واتسع سوقها

الصـــغير الذي توسط (القطاطي) وشيدت مزيدا من الدكاكين والمطاعم.

كانـــت أحوال اللاجئين بائسة. هبطوا هناك وباتوا أشهراً فـــي العـــراء، الماء فقط كان متوفرا لقرب ذلك العراء من نهر القـــاش. وبمرور الوقت شيدوا ما يشبه المساكن بعد أن انتزعوا أعوادا من الضفة. المحنة كانت قاسية على الأطفال، حيث مات فـــي الأشـــهر الـــثلاثة الأولى جل من كانت تقل أعمارهم عن الخمـــس ســـنوات، ومـــع توالـــى موجات النزوح كانت مدافن الأطفال تتوسع، حتى أن المنطقة أصبحت تسمي "آكلة الأطفال" وأن سمعتها السيئة هذه بلغت إلى مسامع الأمهات اللائى كن في قراهن في الريف الإرتري.

كانت الأمهات وهن في طريقهن نحو آكلة الأطفال يبكين قـــائلات: "أننا نحمل فلذاتنا إلى هناك كي يدفنوا". البعض منهن فضـــلن المـــوت في أرتريا، "ما الفائدة من اللجوء مادمنا سنفقد أحبتنا".

لم تكف الكوارث عن التعاقب فقد أعقبت كارثة اللاجئين كارثة أشد نكالا برزت بقرونها الشيطانية معلنة عن شرخ كبير في جسد الثورة.

فجأة ظهر أفراد مسلحين حول محيط غابة معسكر "كركبت"، وراحوا يعلنون للناس، أن لا علاقة لهم بالجبهة. وأنهم ينتمون لفصيل جديد يقوده كروم. كان لظهور هؤلاء وقع الزلزال على المواطنين الذين أبدوا استهجانهم للأمر. قيادة الجبهة أخذت على حين غرة، ولم تتحسب للتعامل مع ظاهرة الانشقاقات من قبل. لم يدرك المستجدين الذين ضمهم المعسكر السري حجم الخطر الذي شكله الحدث بهذه العلنية. ولمعالجة الوضع عقدت القيادة سلسلة اجتماعات، قررت على إثره الاتصال بكروم وتقديم أقصى ما يرضيه للعودة إلى الجسد الأم "الجبهة". لقد بحثوا عنه في كل مكان ولم يجدوا له أثراً في النهاية تقرر التحدث مع مقاتلي الفصيل مباشرة.

قال لهم الوفد الذي التقاهم:

- "جئنا لنستمع لمطالبكم، ونحن مخولين لتلبيتها ما أمكن".

- رد أحد المنشقين:

- (اتضح أنه كان قائد سرية سابق في الجبهة، ذهب إلى السودان في إجازة ليظهر فجأة مع المنشقين " لنا قيادة سياسية يمكنكم التفاهم معها".

قـــال رئـــيس الوفد "بحثنا عنهم حتى في السودان خاصة كـــروم لكـــن عجزنا في الوصول إليهم. ولأن الوضع حساس، وأنـــتم تعلمـــون أن هده المنطقة تعد حيوية للجبهة، ونخشى أن يلفت النشاط هنا نظر العدو. لا سمح الله أن يرصدها.. وقبل أن يكمل حديثه قاطعه منشق آخر:

- "يرصدها أو لا يرصدها هذا الأمر أن كان يعنيكم انتم فهو لا يعنينا".

فهـــم الوفد أن لا جدوى من التحدث مع هؤلاء والأفضل مواصلة البحث عن كروم للوصول معه لحل.

فجأة قال المنشق الأول بعنق متصلبة:

- "لا تتعـــبوا حالكم، اخترنا المنطقة بعد دراسة لمزاياها الاستراتيجية، ونحن وقيادتنا قررنا التمسك بها، ولا جدوى من الاتصـــال بـــنا مرة أخري. وأن أي محاولة أخرى من طرفكم للـــتكلم بهـــذا الموضـــوع، سيعد تدخلا في شؤوننا. نقول هذا للتحذير فقط".

لـــم يعلق أفراد الوفد خوفا من مشاحنات لا لزوم لها تعقد الموقف، ونهضوا وغادروا بعد مصافحات لنظرائهم أرادوها أن تكون ودودة وأخوية تمحو جفاف الحديث الأخير للمنشق.

فـــي طريق العودة الأمر الوحيد الذي تناقش حوله أفراد الوفـــد كـــان حـــول تســـليح المنشقين. كان لديهم أسلحة حديثة ومـــتطورة وتوصـــل الوفـــد أن جهة خارجية تقف وراء هذه الظاهرة "قد تكون إثيوبيا نفسها" خمن أحدهم.

الـــتطور الـــذي طرأ بعد نحو أربعة أشهر من اللقاء كان لا يصـــدق. وجـــاء بمثابة صدمة لقيادة الجبهة التي نشطت في عقد سلسلة اجتماعات لتقيم الوضع.

كانت الورقة التي أمام حريرأى تحوي على عدة نقاط هي خلاصـــة التقارير التي وردت إلى المكتب العسكري. وأول تلك النقاط كانت حادثة إطلاق للنار تعرض لها مجموعة من حراس معســـكر كركبـــت من قبل المنشقين ليستشهد فيها أحد المقاتلين وجـــرح آخـــر. لتسجل بذلك كأول حادثة نشاز تواجهها الثورة الإرترية.

الـــنقطة الثانـــية، كـــان الظهـــور المتعمد حول المعسكر والملاســـنات مـــع مقاتلي الجبهة وتكرار هذه الصورة خاصة التواجد قرب المعسكر مما سيشكل خطرا على مهام الجبهة.

ثالـــث النقاط تمثلت في محاولات المنشقين إغراء مقاتلين من الجبهة بالمال للانضمام إليهم.

آخـــر الـــنقاط كانت اعتراض المنشقين لقافلة من الجمال تحمل عتاد ومؤن للجبهة والاستيلاء عليها.

قـــال حريراي: "المطلوب ضبط النفس. وعدم الاحتكاك معهـــم مـــا أمكـــن، إن مـــا نواجهه أمر خطير ومعالجته أمر ضروري والبعاد عن ما يفاقم الوضع مع هذه المجموعة أهم ما يجب الحرص عليه.

ثـــم تـــناول الحديـــث قـــائد القطـــاع مظهرا غضبه من المعالجـــات التي اتبعتها الجبهة منذ ظهور "الثورة المضادة" كما سماها. وعاب اللين الزائد والأمل الكاذب الذي خدع الجبهة في عـــودة "المضـــادة" إلى رشدهم والعودة إلى جسم الجبهة الأم. وخلص إلى القول. ما لم يوضع حد بالقوة لتصرفاتهم هذه سوف نراها تتكرر.

أمـــا المرشد السياسي للقطاع كان لـــه رأي آخر مختلف ودعا للتمسك به.

قـــال: "من الواضح أن الجماعة يرغبون في الإعلان عن نفســـهم بهـــذه الطريقة، أي المواجهة والصدام مع الجبهة. أنهم يســـعون لهـــذا الأمـــر بكل الطرق يريدون الدخول في معركة واحـــدة فقط لتكون بمثابة الإعلان عن وجود فصيلهم. يطمحون

اكتســـاب الشرعية من خلال تدشين حرب أهلية لغرض الدعاية أي الدعايـــة لوجود كيان منفصل عن الجبهة، كيان آخر. وهم الآن في أشد حالات العطش لذلك وهذا يعلل أيضا اختفاء كروم وبقية أتباعه من المتنفذين. وأري تجنب ذلك هام جدا. والانتباه وعـــدم إعطائهم هذه المعركة، يعد مكسبا في غاية الأهمية. نعم يجب عدم وهبهم أي معركة.

وجـــد كـــلام المرشد تفهما كاملا من بعض القادة. ولكن الـــبعض الآخـــر طالـــب بحل سريع معللين أن استمرار تواجد "المضـــادة" فـــي الجوار أصبح كل يوم بمثابة الخطر المتعاظم لأسباب منها الأمني ومنها وحدة الساحة وسمعة الثورة الإرترية المســـلحة فـــي الخارج. خاصة بعد أن ظهر السر الخطير. أي ظهـــور ســـلاح الجبهة مع قبائل جبال "ردفان". هذا السر الذي كـــان يخشى كروم انكشافه. حين علم كروم في أسواق مافيات الســـلاح بحاجـــة تلك القبائل للسلاح وأنها تدفع أضعاف أثمانه. ذهـــب مـــع اثنيـــن من أتباعه وأتم صفقة السلاح الذي اشتراه الإرتريين من قطرات دمهم.

وحيـــن ســـأله حريـــرأى إبان لقائمها في الخرطوم عن الشـــحنة بحســـبانه كـــان مكلف بشرائها. قال وقتها كروم وهو

يحاول أن يخفي ارتباكه "ستصل إلى الميدان قريبا" في حين أنها كانـــت قــد وصـــلت إلـــى ردفان بالفعل. وكان ثمنها في جيبه وجـــيوب أتباعه. السيد (باشاب) الربان السوداني الذي خاطر بالإبحار بالشحنة حين كانت في طريقها للميدان. تلقي وهو في عـــرض الـــبحر إشارة من كروم يطلب فيها منه أن يعدل خط الســير ويتجه إلى نقطة محددة على الشاطئ اليمني. تم إنزالها هـــناك تحـــت إشراف أتباع كروم. سافر السوداني بعضها إلى دمشق وعلم هناك بما جري للشحنة.

حين التقى في أحد الفنادق بكروم بادره السوداني بغضب: (هنيئا لك ببيع دماء الشهداء). أطلق كروم ضحكة صاخبة في وجه السيد باشاب ومضي.

قـــال باشـــاب وهـــو يســـرد واقعة اللقاء: (لقد أغاظني ضـــحكه. كنـــت أتمنى أن يقول أي شئ عدا الضحك على ذلك النحو).

ســـنتان مـــرت الآن على ظهور "المضادة" قابلتها الجبهة بضـــبط مســـؤول للنفس. إلى أن وقعت تلك المعركة التي حذر منها المرشد. كانت جل قوات الجبهة موزعة على جبهات القتال المخـــتلفة. وفـــي أحـــد النهارات طوقت مجموعة من المضادة

"كركبت" بدعوى البحث عن مقاتل هرب منهم ودخل المعسكر. حـــاول الرجال إفهامهم أن المقاتل المعني جاء إلى هنا طواعية، ولـــم يكـــرهه أحـــد علـــى ذلك. لم يقنعهم المبرر، بل واتخذوا أوضاعا قتالية. وهددوا بفتح النار ما لم يسلم المقاتل فورا.

أمـــام هذا الوضع المعقد رأى المسؤول من أمن المعسكر أنـــه وكمحاولـــة لـــنزع فتيل الأزمة أن يؤتي بالمقاتل المعني ويتحدث للمضادة مباشرة حتى يقتنعوا بأنفسهم.

مضى إلى موقع تمركزهم وقال لهم:

"أنـــا اخـــترت هذا الخندق للنضال يا إخوان.. وقبل أن يكمـــل حديـــثه ســـمع قائد المضادة يقول: "اسمعوا انه ينادينا بـــإخوان... أنـــت لست أخا لنا وهاك ما يثبت هذا". ثم أطلق علـــيه الـــنار. دهش رجال المعسكر وهرعوا إلى حيث سقط المقـــاتل الـــذي وجدوه قد فارق الحياة. هم الحراس بالإطلاق علـــيهم لكـــن المسؤول الأمني منعهم بحزم وفي لهجة آمرة. جـــاءت رصاصـــات نزل بعضها في ساحة التدريب وبعضها الآخر على خنادق النوم وتمسك أفراد المعسكر بعدم الرد.

بعـــد أن قرأ قائد القطاع في اليوم التالي تقريرا عن الواقعة خابر كل من رئيس المكتب العسكري والمرشد السياسي اللذين كانا بـــرفقة وحـــدات مـــن الجبهة مشتبكة مع العدو في قطاع دنكاليا،

يطلعهم على التطورات ويطلب الأذن بطرد المجموعة من المنطقة.

كان ردهما:

- "لا تعطهم المعركة".

تجاوزت أخبار المضادة بقعة تواجدهم الصغيرة القريبة من كركبت لتعم كل أنحاء إرتريا وكان الناس يستقبلون بألم انتشار الانسلاخ الذي حدث في جسد الثورة وفي الاجتماعات الجماهيرية التي كانت تعقدها الجبهة لإطلاع الناس في كافة المناطق حول الظاهرة. سجل العديد من الناس صوت لوم للجبهة وأنها تعاملت مع الأمر كما تتعامل النعامة مع الخطر وطالبوها بحسم الأمر عسكريا حتى لا تتشجع مجموعات أخرى وتحذوا حذو هذا الانسلاخ الذي هو خليط من "القبليقليمي".

وتحدث في أحد الاجتماعات رجل من "سمهر" قائلا:

- "أنا أعرف كروم هذا جيدا. لا علاقة له بالنضال، وهو متأثر بشدة برؤية نخبة "مصوع" التي انشقت عن حزب الرابطة في الخمسينات وأيدت مشروع الانضمام إلى أثيوبيا، بشرط أن تتقاسم السلطة مع حزب "الأندنت". وافق هيلي سلاسي على الشرط لكن الأندنت فضل التفرد بالسلطة ورفض

إشـــراكهم معه. إذن المرارة من الأندنت هي التي دفعت كروم وغـــيره مـــن الالـــتحاق بالثورة وليس الإيمان بها أو بأهدافها الوطنـــية. ولا أســـتبعد الآن، إنـــه ينفّذ أوامر أثيوبيا التي من المحتمل أوعزت لـــه إحداث انشقاق في الثورة لإضعافها مقابل منحه بعض الامتيازات.

وفي اجتماع الساحل قال أحد الأعيان: "أنه قبل مدة اطلع علـــى رســـالة سرية وجهتها مجموعة المضادة لبعض الأعيان يطلـــبون فـــيها تأيـــيدهم ومعاداة الجبهة، ووعدوا في رسالتهم بإجـــزال العطـــاء لكـــل من ينفض يديه من الجبهة. وكان رد الأعيان (لتذهب المضادة إلى الجحيم).

أما لقاءات الوحدات المقاتلة فكان مختلفا تماما.

قـــرأت فـــيه كافـــة التقارير العسكرية والسياسية وحتى الاســـتخبارية التي أجمعت كلها أن المضادة تمثل "تحديًا خطيرا للـــثورة". تلك كانت الخلاصة. ومع هذا تمت التوصية بالتعامل المرن مع الوضع. والبحث عن حلول مثلي.

لكـــن الحلـــول كانت بعيدة والحرب بين الإخوة فرضت نفســـها بقســـوة واضعة الساحة في خطر محدق ومهددة بزوال المكاسب.

اندلعــت الحــرب حيــن قدمت قوة مدججة من المضادة وقامــت بمحاصـــرة قوة من الجبهة كانت في طريقها لتوصيل جرحـــي معـــارك أغــردات إلى العيادات في الخلفية رفضت مرورهم بدعوى أنهم يمرون بمواقعهم وهذا ما لن يسمحوا به. وطلبوا منهم العودة من حيث أتوا.

عــندما علم مسؤول القطاع بالعملية أرسل سرية لتساعد الجــرحى علـــى المرور. وبعد أن وجهوا للمضادة إنذارا بعدم التعرض للجرحى. جاء الرد بطلقات كثيفة قتلت جريحين. ومن هنا شهدت إرتريا انفتاح جراح أسمه "حرب أهلية". عندما رأى قائد السرية النار تحصد رجاله تمني أن يكف هؤلاء عن العبث، لكـــن الأمـــر كان مبيتا كانت هذه هي المعركة التي سعي إليها المضادة ووجدوها أخيرا.

قال قائد السرية لجنوده: "دافعوا عن جرحاكم يا شباب".

اســتعرت المعركة وتجاوزت بقعتها الصغيرة لتشمل كل مواقـــع المضـــادة ولتســتمر أســـابيع طويلة وقاسية لعبت فيه المصـــائر بـــالدم الإرتري بتراجيديا سوداء كالحة السواد. أحد المقاتلين مات وهو يقول: "يا رب موتني في معركة نظيفة، بدل هذه المعركة الوسخة".

كانـــت عبثــية لا نهائـــية في أتون النار والموت لم يعرف الجـــندي ماذا يفعل هل يموت هو؟ أم يميت أخاه؟ لم يستغرب أحد وقـــتها أن يصـــرخ الجـــنود على الجانبين الملتحمين ويبكون في الخنادق. لكن النار كانت هي النار ولم ترد حتى في تلك الأيام أن تترك عاداتها. كانت تأكل الأجساد في جوع جائح حسمت ولابد أن تخلف ورائها شهادة كأي حرب لعينة "رجال بدون سلاح، وسلاح بدون رجال" في إشارة للسلاح المتطور لدي المضادة، ولاستماتة رجال السرية الدفاع عن جرحاهم.

كـــنا نرصد تقدمهم على الطريق. فجأة ، توقفت العربات عـــند نقطة كنا نطمح في إن يتجاوزوها ، انتظرنا حتى يتقدموا وعـــندما لم يفعلوا ، قفزنا من مواقعنا لقدام وأصبحنا على بعد مـــرمى حجر. بدت الأرض خفيفة الوزن والرؤية أوضح منها في أي وقت آخر.

كنا نرى فوهات مدافع الدبابات المموهة بالأغصان وحتى شكل أسنان الجنود ، كنا نسمع أحاديثهم، وحتى كنا نحس حرارة أجسادهم. اقتربنا أكثر ، كان سلاحنا لا شئ. وكان الوحش البشع مدججا ببنادق ومدافع غريبة الأطوار. كان علينا صدهم بأي ثمن ، تطاير إليهم رجالنا الذين تنادوا.. هيا.. يا رجال... هيا نصدهم أو نموت ، ووقفوا أمام المجنزرات بأضلعهم.

قــبل إصابته بقليل وبينما كان الرصاص "يترامش" قربنا بثقل سمعت ناصر.

يقــول لي: "احترس حتى الآن يبدو أنه نهار حبك. كادوا يحلــبوا علــيك الرشاش يا رجل. لقد خفت حدة النيران بيد أن همــي الأكــبر كان مركزا على موقع هذا الرشاش الذي أعاق تقدمنا ورغم إن المعركة بدت كمن أوشكت على الانتهاء إلا أنه لم يصمت بعد.

أرغمني السائل الأحمر الحار الذي تفجر حولي فجأة على إغماض أعيني. التفت ورائي بأنفاس محبوسة لأجد ناصر الذي كنــت قــد لمحــت ظله منذ قليل يرتسم على الرمل كلما وقف لــيرمى بالقــنابل مكســي بالدماء. كانت إصابته بليغة حاولت إســعافه ولكــن موضــع الإصابات كانت كثيرة واستشهد فى لحظتها. حضر "سالم أب عافيت" إلى الموقع انحنى على الشهيد بحزن ثم ما لبث أن أنطلق.

غطَّيــت وجه الشهيد وتبعت من فوري "أب عافيت". كنا نــتقدم للإطــباق على من تبقى ونلتقط في طريقنا قطع السلاح التي تناثرت حول جثث الأثيوبين. سمعت لعلعة الرشاش اللعين مجددا. رأيت إثرها أب عافيت الذي كان قد سبقني بأمتار قلائل

يسقط جريحا، عدوت لإسعافه غير أن الرشاش منعني من التقدم. واصل أب عافيت الزحف ببطء نحو شجرة كانت قربه، وما أن أصبح تحتها حتى رأيته يوجه بندقية الكلاشنكوف أبو أخمس حديد صوب فروعها العالية مطلقاً صليات متتالية اهتزت إثرها الأغصان بعنف. وبدا لى كأن شيئاً ما يتهاوى، شيئاً ثقيلاً تقصفت تحت وطأته الفروع. كان جنديا إثيوبيا سقط بكامل ثقله فوق أب عافيت فاقدا الحياة، بينما ظل رشاشه الثقيل يتأرجح فى الهواء بعد أن علقت حمالته على فرع دان. انضم إلى ناشح الذي رأيته توا يصرع أحد الأثيوبين عقب التحام بالسلاح الأبيض.

توجهنا معاً صوب الشجرة التي استقر تحتها أب عافيت. كان يغالب ألم جراحه ، كانت عظام ساقه اليسرى أسفل الركبة قد تفتت أحكمنا ربط الساق لوقف النزيف. الأرض تحت الشجرة كانت مغطاة بدماء الأثيوبى وثمة قطرات ثخينة آتية من أعلى الشجرة كانت تنزل في المكان قربنا وفوق جثة الأثيوبى. تطلعت في ذات الآن الذي تطلع فيه ناشح عبر الغصون الكثيفة إلى أعلى الشجرة. هتفنا معا:

– هناك واحد آخر.

بســـرعة تســـلقت الشـــجرة وجدت الأثيوبى منحشراً بين الفـــروع المتيـــنة، كـــان في النزع الأخير وكان جسده مهترئا، أطلقـــت رصاصـــة الـــرحمة علـــى رأسه سقط إثرها مرتطما بـــالأرض. سرور عارم طغى على رجال كتيبتنا ليس لنصرنا هـــذا وحسب، بل لكل هذا السلاح الذي غنمناه وللأسرى الكثر وكان ضمنهم الجنرال الدموي "سمرت"، المقاتلة شنكحايت بنت علـــى ماشيلاى التي جاءت به تدفعه أمامها بعد أن جردته من مسدسه وبندقية أخرى نوع "أوزى" ، لم تصدق فيما بعد، عندما علمت أن أسيرها ذاك كان الجنرال سمرت بلحمه ودمه. وندمت لأنهـــا ســـلمته حي وقالت: (لو أنني كنت أعرف أنه "سمرت" لكنت "زرزرت" لحمه وشربت من دمه).

توقَّـــف إطلاق النار تماما وعاد رجالنا بقطع سلاح آخر قطـــيع تمت إبادته ، كان قد حاول الإفلات عبثا. قدم رجالا من عامـــة الشـــعب لمساعدتنا وانتشروا في أرجاء ساحة المعركة يجمعون قطع البنادق والذخائر والقنابل ويهنئون بعضهم البعض بأصـــوات عالـــية. لم يتركوا شيئا ، الخوذ ، والشابلات وحتى الأحذيـــة العســـكرية من أرجل جنود العدو الميتين ، والأحزمة المدماة وغير المدماة وكل شئ تقريبا.

وصل قائد الكتيبة إلى حيث تم تجميع الأسرى الذين أحاط بهـــم المقاتليـــن ووقـــف يدقـــق في وجوههم وفى الرتب التي يحملـــون، قارن الصورة التي بحوزته بوجه "سمرت" ليتأكد أنه هو فعلاً ثم خاطبه:

– أنت هناك انهض.

وقـــف الأســـير الذي كان يتطاير الذباب حول جرح قديم فوق مقدمة جبهته كان ينز صديد عفنا، سأله قائد الكتيبة:

– اسمك؟

أجاب الأسير:

– سمرت عندو ماريام تولدي.

– إرتري أليس كذلك؟

– أجل. أجاب الأسير.

– رتبتك؟

– جنرال قائد فرقة "الكمنديس" السابعة.

ساد الهرج والمرج المقاتلين الذين كانوا يحيطون بالأسرى، عندما علموا أن "سمرت" تحت قبضتهم. وهم أحد المقاتلين لضربه بالنار. فتدخل المرشد السياسي للكتيبة، مذكرا المقاتلين، بأنهم مقاتلون، من أجل قضية عادلة. وليس للعواطف أو للثأر محل فيها. وأن "سمرت". وكل الأسرى هم أسرى حرب وسيعاملون وفق هذه القاعدة.

حالما أكمل المرشد السياسي كلامه توجه قائد الكتيبة مخاطبا الأسرى:

- هل هناك إرتريون آخرون بينكم؟

فورا ارتفعت أيدي نصف الأسرى.

كانت الدنيا ساكنة، والرياح التي كانت تهب نشيطة في هذا الصباح هدأت قليلا. والأمر الوحيد الذي كان مميزا ، هو الالتماعات فوق صخور الجبل الملساء بفعل أشعة واهنة تسللت خلسة بين السحب الداكنة.

خرج الممرض مسعود من خيمة العيادة العريضة والتي كانت مدكوكة وسط أشجار "العوبل" وجاء إلى حيث كان يقبع الأسير الذي عزل عن باقي الجرحى من مقاتلي الجبهة تحوطا من

الاعـــتداء علـــيه. لقد تم جلبه منذ ثلاثة أيام إلى هنا ليشرف عليه أطباء العيادة، لم يصدق المقاتلين أعينهم أن الذي يشاركهم الخيمة هو سمرت بلحمه ودمه والذي وحتى المقاتلة حليمة التي هي الآن المسئولة عنه عمليا دهشت وتذكرت حادثة قطار المؤن العسكرية الـــذي تـــم نســـقه عـــند الجسر الحديدى الواقع بين بلدتي حقات وعـــدردى وكان سمرت ضمن الضباط المرافقين للشحنة ولكنه لم يصـــب وأفلت من الوقوع في الأسر. وأنه نجى حتى من محاولة اغتـــياله خططـــت لها الجبهة داخل بار في كرن قبل عام مضى اشـــتهر سمرت بالتردد عليه. فعندما تسلل الفدائي إلى كرن أنتظر مختبئا داخل مخزن للعيش يملكه تاجر منضو في خلية سرية تابعة للجـــبهة غـــير بعيدا عن البار. ظل أعضاء الخلية لأيام يراقبون تحـــركات سمرت إلى إن أختفي فجأة لما يزيد عن الشهر إلى أن علموا أنه لم يغادر المدينة يقضي أيامه متنقلاً من معسكر لآخر.

قال عضو الخلية محمود كبوب لعمر عجيل:

- عندي خبر.

- هاته.

- سمرت الذي حاولنا تحديد مكانه ولم نعثر عليه موجود

في المدينة.

- لا أصدق، هل رأيته؟

- أجل.

- إذن علينا تبليغ الرجل لكي يستعد.

- لا فائدة. أنه يتمتع بحماية أكثر مما يتمتع بها قائد الحامية نفسه.

وهكذا ألغيت العملية وصدرت الأوامر للفدائي بالعودة للميدان.

قال الممرض:

- دعنا نحاول معه جرحك هذا.

نظر الأسير بامتنان للممرض ثم اعتدل في جلسته بعد أن أزاح قطعة القماش التي كان يسدلها فوق ضمادات الجرح الغائر على جبهته، شرع الممرض بتنظيف الجرح الذي كانت تفوح منه رائحة نتنة تقلب القلب. كان الممرض يكافح الذباب الذي كان يتسابق بالولوغ في فوهة الجرح البشعة، وحالما أحس أنه لا يستطيع أن يؤدى عمله وسط هذا الغزو، جمع حزمة

مـــن حشـــائش جافة وأشعل فيها النار كي يطرد الدخان الذباب الذي أخلي الموقع منسحبا. وقرر في نفسه أن يتعامل مع الجرح في الليل حين يهدأ الذباب.

قـــال الأســـير التي كانت إحدى عينيه تدمع بفعل شعرة غاصت فيها:

- هـــذا الجـــرح تســـببت فـــيه بنفســـي. وعلى كل حال لا تســـتغرب إذا استعصـــي على الشفاء، أحسه أقدم من عمري، ولم أترك حيلة، أو دواء إلا وجربته.

لقـــد عجزت حتى مشافي أوروبا عن علاجه، أوفدت إلى رومـــا، وحتى إلى ألمانيا على فترات، ولم يلتئم. في أديس أبابا كـــان محور أحاديث الأطباء وتعجبهم. وحين ذهبت إلى إيطاليا ولـــم ينفع معه طبابة الطليان، بعثت إلى ألمانيا، وهناك اعتقدوا أنهـــم نجحـــوا في التغلب عليه. وأنا كذلك هذا كان اعتقادي لما رأيته في الظاهر قد التئم. ولكن ، بعد أن عدت إلى البلاد انفتح مـــن تلقائـــه بطـــريقة أبشع من السابق، نصحني الناس بتجربة الأعشاب ، فعملت كل الوصفات التي كنت أسمع عن نجاعتها ، لكنه رفض أن يلتئم. ليتني لم أولد.

- ولكـــن لـــم كـــل هذه الحسرة؟ وكيف تسببت كما تقول، بنفسك في هذا الجرح.؟ سأله الممرض.

ظـــل الأسير سمرت صامتا كأن حلقه قد سد وظلت عيناه "تفرفطان" في الفراغ. وفى محاولة لتغير الحديث سأله الممرض مسعود:

- رتبتك كانت عالية ، هل درست في كلية عسكرية؟

اهتز الأسير سمرت للحظة ورد مجيبا:

- لا.. كنت..

ثـــم صـــمت وسهم طويلا وهو يطرقع أصابع يديه، كان الجلـــد الذي يغطى مفاصل الأصابع مسودا ومتغضنا، كف عن الطرقعة وعاد للكلام قائلا:

- كنت جنديا وحسب.

- والآن أنت من أصحاب الرتب العليا، لابد من قصة وراء كل هذا.

دعـــك الأســـير عيـــنه ثم وبعد أن فرك حول رقبته بيده اليســـرى مرر أنامله متتبعا خيط الصليب الذي كان يحيط عنقه

إلى أن وصل إلى موضع الصليب الفضي الصغير وراح يفركه بوتـــيرة بطيئة. كان الممرض الذي أكمل وضع الضمادات فوق الجـــرح ينـــتظر ليســـرد سمرت القصة كاملة. كانت النار قد انطفـــأت وعاد الذباب إلى سابق سيرته يعج في المكان. جاءت المقاتلـــة حليمة وفى يدها حزمة من الريحان وضعتها في حجر الأسير ليهش بها الذباب.

قال الممرض موجها كلامه لحليمة:

- جئت في الوقت المناسب لتسمعي قصة سمرت.

- لا أعـــتقد أنـــك تود سماعها. لا ، أنت غير جاد. ولكن عموما من في إرتريا لا يعرف قصة "عنكر هيلي" الذي كان مرعبا؟

- هيا احكي يا سمرت. أريد أن أسمعها منك.

حكى بدقة وتدفق وبلا مشاعر مميزة تقريبا. وقال:

- مـــرة بعـــد إن قمنا يذبح كل الذين وجدناهم في المزارع وبيـــنما كـــنا نتأهـــب للمغـــادرة برزت لنا فجأة من بين المـــزروعات صـــبية صغيرة تحلت بالتمائم والأصداف

والخــــرز تمسك بيدها خنجراً صغيراً، وانطلقت تهجم به على رجالنا الذين وجدوا في الأمر تسلية، وقفوا في حلقة متباعدة. فما إن تهجم على أحدهم حتى يهرب هذا بجسده مــتراجعا إلى الوراء. ثم تعدوا ناحية واحدا أخر كان قد تعمــد الاقــتراب منها. وما إن تندفع ناحيته حتى يبتعد بدوره بعيدا.

وهكذا ، تتكرر محاولاتها وسط تعالى قهقهات الجنود.

صــمت الأســير متذكرا وبعد أن فرك حول رقبته عاد لسرد القصة قائلا:

- عندما جاءت ناحيتي كانت قد خارت كل قواها وسمعت في ذات الآن نـــداء الضابط لي "هيا... يا سمرت، أنهى الأمر" تركتها حتى كادت إن تلتحم بي وعند ذلك أمسكتها بقوة من وسطها بكلتا يداي. وبينما كنت أقذف بها لأعلى فوق رأسي غــرزت الخنجر في جبهتي. كانت تطير فوقي ، انتظرتها وقــد شرعت حربة بندقيتي لأعلى. في اليوم التالي بعد ما قــرأ قــادة فرق الكمندوس التقرير عن العملية طيروه إلى هيلا سلاسي الذي طير لهم بدوره أمرا بترقيتي إلى ملازم أول وهكذا خلال عامين أصبحت برتبة عميد.

سأله الممرض مستفسرا:

- وهل كان هيلا سلاسي يثق كثيرا في الإرتريين الذين في جيشه.

- ولِمَ لا. طالما أنهم يأكلون ما يقدم إليهم بشهية. هكذا أجاب الأسير.

أمل الممرض مسعود من كل قلبه أن تكون هذه الصراحة التي تفاجئ المستمع بداية لتوبة نصوحة تدفع سمرت ليكون في خدمة شعبه واللحاق بركب ثورته التحررية.

نصف عام مر على وقوع سمرت في الأسر، قضاها في تلقي العلاج في العيادة المركزية.

كان ضمن الجرحى أفراد من كوادر الجبهة يقضون جل وقتهم في نقاشات مع سمرت حول الوطن وقضاياه. وكيف استطاع هيلي سلاسي بالتعاون مع الكنيسة الإرترية من شق الصف الإرتري وتأليب جزء من المجتمع ضد ثورته عبر التضليل والأكاذيب. ووعيد الكنيسة وتهديداتها بحرمان من يؤيد فصل إرتريا عن إثيوبيا الأم من العمادة والدفن في مقابر المسيحيين.

- هذه هي الحقيقة يا سمرت (يقول لــه أحد الكوادر) لقد وضــعنا هيلي والكنيسة في خندقين متقابلين. لكن الجبهة عاقدة العزم على توحيد الشعب وإفشال مخططاته.

كادر آخر يقول:

- ألا تحلــم بــأن يكون لك دور في توعية الشعب وكشف دسائس المستعمر.

يا سمرت؟.

وطــوال فترات النقاشات يظل سمرت يتقوقع حول قوقعة الجهل بما يطرحونه من أفكار حول إرتريا الوطن، ومؤامرات هيلــي، لــيلخص كل هذا حين يخلو إلى نفسه في كلمة واحدة "ترهات".

ســمرت مــثله مــثل المئات من قادة وضباط الكمندوس بحســبانهم ورثــة النخــبة السياســية التي أفرزها حزب الوحدة "الأندنــت" فــي فترة تقرير المصير حقبة الأربعينات. كانت لهم رؤيــة قاتلــة للجهد الوطني الإرتري الذي اضطلعت به الحركة الوطنية الإرترية متمثلة في أحزاب الكتلة الاستقلالية وقبله حزب الــرابطة الإســلامية بقيادة الزعيم السياسي والمصلح الاجتماعي

إبراهيم سلطان علي، الذي نادى بوحدة إرتريا، ووقف ضد المشروع البريطاني لتقسيم البلاد والمتمثل بإلحاق أراضي المنخفضات المسلمة بالسودان، وضم القسم المسيحي أي سكان المرتفعات "كبسا" إلى الإمبراطورية الإثيوبية. كما أنه وقف ضد إلغاء الكيان الإرتري وضمه نهائيا إلى إثيوبيا عكس دعوات الكنيسة الإرترية التي ما انفكت تسهر على تنفيذ رغبات هيلي سلاسي التوسعية بمساندة سياسية من حزب "الأندنت". كانت لهؤلاء الضباط رؤية سياسية راسخة، تتمحور في التحليل الذي مفاده: (بما أننا مسيحي إرتريا تجمعنا روابط الدين مع إثيوبيا. فالأنسب لنا ولدواعي مصالح طائفية، القتال من أجل الوحدة معها، وتسلم حكم إرتريا كشركاء مع التاج الإثيوبي حسب وعودات هيلي، وأيضا امتثالا للخيار السياسي الذي أجمع عليه قادة حزب (الأندنت). وتورط في الأمر فرع حزب الرابطة بمصوع، وسعى لركوب موجة المشاركة في حكم إرتريا المنهوبة بالتحالف مع الأندنت، بأي ثمن. لكن الأندنت رفض أي صفقة مع الفرع المنشق وتم لفظهم. كما تم لفظ أطروحات ولد آب ولد ماريام الذي عارض الوحدة مع أثيوبيا وطرح فكرة "اتحاد إقليم تقراى مع إرتريا" وتكوين دولة "تقرأى تقرينيا".

جــرح ســمرت لــم يلتئم. كانت تقلصات الوجه ودماء الغضب وحتى رعشة الخوف كفيلة بإيقاظه من نومه.

ســلم أطباء العيادة أخيرا بعجزهم: "الجرح لا يستجيب". تعــافى العديــد مــن جرحى الجبهة وغادروا العيادة ملتحقين بوحداتهــم، البعض منهم قاطع العلاج لأن تطورات هائلة جدت علــى جبهات القتال، وعندما أتيحت الفرصة لسمرت للقتال في معركته الحقيقية وليس في خندق إثيوبيا رفض قائلا:

- لا أريد أن أحارب اتركوني.

- حســنا، كمــا تريد. "قال المناضل إدريس حريرأى الذي حضر لتفقد الجرحى منتصف هذا النهار.

- "مــا دامــت هذه هي رغبتك، ثم انه لن يجبرك أحد إن تنضم إلينا ورفضك هذا لا يفقدك في كل الأحوال صفتك كأسير حرب.

- ربما حاربت معكم مستقبلا.

- لا خلاف على الإطلاق.

- كل ما في الأمر أنني لا أتخيل إن تطلق يداي النار على جيش جانهوى.

- لكنه عدو.

- إنـــه كمـــا تقـــول عنه. إذا ما حاربته كأنني ألطخ جبين العذراء بالسخام.

- من أين تأتيك هذه الأفكار؟ إن هذا الجيش الذي كنت أنت أحـــد قادته، لم يحارب باسم العذراء. بل من أجل ابتلاع إرتريا.

- لا أســـتطع مجادلـــتك. أنا على موقفي، أجدني غير قادر على الذهاب معكم.

- ولكـــن كـــيف قـــدرت إن تحارب ضد أبناء وطنك في الماضي؟

- لم يكن لدي إحساس بأنكم إخوتي وأبناء وطني.

- لكـــنها الحقيقة يا سمرت. أليس اسمك هذا يعني الوحدة؟ يعنى وحدة إرتريا.

- بالطـــبع، أنـــه يعني الوحدة، لكن ليس الوطن الذي تعنيه أنت. فعندما حملته كان يشير إلى وحدة إرتريا وإثيوبيا.

- خـــلاص يا سمرت. لا أحد يجبرك على عمل ما تكره. ابق في العيادة حتى يشفي جرحك.

ولج إلى خيمة الطبابة ووجد الممرض مسعود في انتظاره الـــذي هالـــه منظر الجرح لما نزع عنه الضمادة خيل إليه انه يـــتمدد متســـعا طولا وعرضا فوق جبهة الرجل وقدر أنه عما قريب سيحتلها كاملة. أتم تنظيف الجرح ودهنه بالمراهم ثم وبعد أن وضـــع علـــيه الضمادات حقنه على العضل وغادر الخيمة طالبا منه أن يريح جسده وتجنب التعرض للتيارات.

حـــل المساء ببرود ملساء. العدد القليل من الجرحى الذين كـــانوا يجلســـون فـــي حلقة خارج الأكواخ عادوا إلى الداخل يحتسون الشاي فوق الأسرة.

جـــاءت الممرضة إلى الخيمة لتفقد أحوال سمرت ولما لم تجـــده هـــناك سألت عنه ألجرحي الذين ردوا أنهم لم يروه منذ ســـاعة مضـــت. تناولـــت مسدسها وانطلقت تبحث عنه. عندما هبطـــت إلـــى الوادي رأت آثار قدميه التي انطبعت مضغوطة وعريضة خمنت أنه كان يعدو.

(هـــرب إذا). قالـــت فـــي نفسها ومضت مقتفية أثره. فكرت: (جثته الضخمة ستمنعه من الابتعاد كثيرا سيجهد إذا ما ظـــل يعدو فوق الرمال..). كانت الشمس تبرق بحياد وتنحدر بـــلا حـــرارة وأشـــجار العركوكباى ترمي بتلويحاتها وهى في

علوهـــا الشـــاهق ذاك. فكـــرت أن تمشي بمحاذاة الوادي عبر الأرض الصـــلبة عوضـــا عن رمال الوادي الناعمة التي تبتلع الأقـــدام وتمتص القوة. أخذت تعدو وهي ترمي ببصرها للأمام وكانت تجهد أن تعثر عليه قبل حلول الظلام الموشك. رأت بقعاً لدمـــاء كثيرة منتشرة على الرمال، قدرت أن الجرح ربما انفتح بشـــدة وأخذ يرمى بكل هذا النزيف. كانت خيوط الدماء تمضى مـــع الـــوادي دونما انقطاع، وخشيت أنه ما لم تدركه الآن فأنه حـــتما سيســـقط مغشـــيا عليه أو أن رائحة الدماء ستجتذب إليه الذئـــاب حالما يحل الظلام وأخذت تعدو بأقصى سرعتها. تارة بمحاذاة الوادي، وتارة أخرى فوق الرمل كانت بقع الدماء تزداد كـــثافة كلما طالت المسافة التي يقطعها الأسير الذي رأته أخيرا كان يمشي فوق الرمال سادا بكفيه ثقب جبهته الشره الذي انفتح واســـعا. وحالما اقتربت منه هتفت فيه أن يتوقف. فاجأه صوتها التفت ناحيتها لهنيهة ثم رأته يعدو مذعوراً.

صرخت فيه:

– توقف. أقولك توقف أو أطلق عليك النار.

ســـقط أرضاً ثم نهض وهو يرتجف عندما رأى المسدس المصوب ناحيته.

– قال لها:

– هل ستقتلينني؟

– لن أفعل. إلا إذا رفضت الامتثال.

– أريـــد أن أســـتريح أنـــا مجهد ، وأشعر بالموت جرحي يعذبني

– أسترح لك هذا. ولا بأس عليك، كان جرحك سيبرأ.

– لـــم أحـــس أنه سيبرأ. أبدا، لم أحس يوما انه سيفارقني. وأنـــه لا ينفك يذكرني بالصبية التي لفظت أنفاسها تحت قدمي. قال هذا ثم أجهش بالبكاء.

أعادته إلى العيادة وهناك أرقدوه على سرير وراح الطاقم يعـــالج الجرح بينما كان هو يهذي تحت هجمات الحمي بشريط حياته كلها.

مـــن أديس أبابا كانت تنهال التوبيخات وعدم الرضا عن ســـير حملة الإبادة صوب القيادات العسكرية الاثيوبية المرابطة على الجبهات الإرترية.

"أنتم حفنة من الكسالى تتمطون فوق مراقدكم كالقطط.

وكـــان هؤلاء بدورهم يصبون جام غضبهم على الضباط اللذين في أمرتهم قائلين:

- أنـــتم حفنة ضباط ورقين، أين أخباركم؟ يا حملة البنادق الكسلى.

وكان هذا كافياً لاقتراف المجازر.

وحتى قبل عام مضى كان مجرد ظهور الجنرالات شمبل بلـــو وزرئ ماريام أزازي وأمان عندوم والكونيل زنبي أسفاو والعمـــيد أشـــبر جـــزار أم حجـــر ومحارى كارنشم المعروف (بقنبوت) والعميد سمرت عندو ماريام وأسملاش قيتؤم وتخلى أنكئيل وكلهم من الأرتريين وقيتاشو نادو وهو من "الأمحرة" في مقر قيادة أركان الجيش، كان يعد بالنسبة للجنود العاديين وحتى للرتب الأدنى في الجيش فرحة كبرى.

إذ إن مجـــرد وجـــود هؤلاء في أسمرة أو مندفرا أو في حاميات كرن أو أغردت أو تسنى يعنى هناك غزوات يعد لها، الأمـــر الذي يدفع الجنود للصياح والتهاليل فرحا، بل ويعقدون حلقـــات رقـــص داخل ساحات الحاميات مرددين كلمات أغان صـــاغها القســـيس الإرتـــري (ديمطروس) الذي رافق فرق

الكمندوس يمجد قتل أطفال مناصري الجبهة ويصف كيف أنهم أضرموا الحرائق وتلذذوا بقتل الأبرياء وقتل الشباب الذين حتما كانوا سيلتحقون بالجبهة ويصور في الأغاني بدقة طرق السلب والنهـب وأنهـم بفضل ذلك أصبحوا يملكون المال والذهب في جـيوبهم. لكـن في السنوات الأخيرة تغيرت أمور كثيرة قوية، الجـبهة وامـتدت رقعـة سيطرتها ملحقة شر الهزائم بالغزاة وأعوانهـم. فاختفت بهجات الغزو وغابت أغان القتل وانسحبت حماسة إقبال الذهاب للحرب بل وسجلت نسب هروب كبرى في أوسـاط الجـيش خاصـة الكمندوس وبلغ الجنون مبلغه بقيادة الأركـان وعزمـت على معالجة الأمر وتحقيق انتصار سريع يوقف الانهيار المحدق بالمؤسسة العسكرية. وتم تكليف الجنرال الأصلع (تخلي هيمانوت) لتحقيق هذه الغاية. ظهر وهو يهذى عـبر أروقة مقر قيادة الجيش في أسمرا. فكلما قابله ضابط من أولـئك الذيـن اخـتارهم للانضمام إليه في حملة الإبادة، كان يبادره: " أريد أن أرى في الجيش سعار السفك ". ثم يقهقه متلفتا حولـه ويكمـل مشيرا إلى جمجمته رأسه التي بلا شعر "أقسم سأنظف إرتريا من البشر مثل صلعتي هذه".

لكن في الطريق إلى كرن تتفحم قافلة العربات والدبابات وتخطـــف قذيفـــة الآر. بي جي ضلوع الضابط الأصلع. ومات وهو يقول: "ما الذي ألقي بي في بلاد الأبطال هذه؟".

مـــنذ أول يولـــيو لم ينقطع المطر. نحن الآن في الثلاثين مـــنه، أمطـــار يـــوم أمس كانت الأقوى، كأن بحاراً ومحيطات ارتفعـــت نحـــو الســـماء وقلبـــت نفسها باتجاه الأرض. كنا أنا و(فنجرى) قد احتمينا داخل كوخ رعاة أبقار مهجور مقام على حافة خور"بركة". كان الخور طافحا، مكثنا هناك طوال ساعات فـــي انـــتظار أن ينزل منسوب المياه لنعبر إلى الجهة الأخرى. وكانت الأمواج "الباكرات". تقلب الصخور وتجرف معها أشجار الـــدوم "العركوكـــباى" مـــن علـــى جانبي المجرى، وكنا نسمع انهـــيارات طينية هنا وهناك. بينما الرعود تفرقع كأن من سماء منخفضـــة وكـــان الـــبرق يشرط بسوطه الناري سحب السماء القريـــبة ملامسا بذيله الأرض المحيطة التي حجبت وراء ستائر مـــن مطـــر. استلقى فنجرى على أرضية الكوخ بعد أن أشعل سيجارة "أيديال".

قلت لـــه عندما رأيته يمسك صورتها بين كفيه وهو يقول لي شيئان ألا يجب أن يتبللا، صورتها وسلاح الجبهة.

انتهزت فرصة إتيانه على ذكرها وقلت:

- أحكي لي عنها يا فنجري. خاصة، أن قصتكما تعد واحدة مـــن أشهر قصص الحب التي مازالت حية وهي شغلت الناس لالتصاق بطليها بقضية الوطن وانتمائهما إلى خلايا جبهة تحرير إرتريا السرية العاملة في كرن.
- ماذا أقول. عشنا أيام سعيدة لا تنسي، كنا نُدرس معا في نفس المدرسة بمدينة كرن أحب كل منا الآخر بصمت. لم أجرؤ على مفاتحتها. ظلت أعيننا تقوم بذلك.

صـــبغت الذكـــريات محياه بألوان فرحة تألقت لها عيناه. أطلـــق زفرة طويلة وأضاف بعد هنيهات من الصمت: (يا لها من فتاة، مرة علمت من التلاميذ إنها كانت تقرأ عليهم أشعاري ســـرا، وحين كنت أقول لها إنك تعرضين نفسك لخطر الاعتقال ولا أريـــد إن تعانـــي بسبب قصائدي، كانت ترد على. أريد أن يفـــرقع بهـــا التلاميذ ذات يوم في الشوارع وحجرات الفصول. وذات يـــوم حـــدث مـــا كنت أخشاه، جاء الجنود إلى المدرسة، حاصـــروا الفصـــول واعتقلوا "شافيت" وبحوزتها ديوان شعري الـــذي كنت أسميته "عطر سينوس" فتش الجنود حقائب التلاميذ ووجـــدوا كـــل كراساتهم وقد احترقت على أغلفتها عيون هيلى

سلاسى وعيون زوجته ونجليه التي كانت تحتل صورهم الأغلفة الأخيرة للكراسات. يخيل إلى أحيانا كلما أمعنت النظر إلى شعر رأسه، أن الشعرات البيضاء أطول قليلا من الشعرات السوداء بطريقة ملفتة. وكلما أطلت النظر إليه لأتحقق من ذلك، أحس انزعاجه ورغم ذلك كان يكتفي بهرش رأسه.

فكرنا أنا وفنجري في ذات الآن إننا لم نأكل منذ ثلاثة أيام، فانتهزنا اللحظات التي شفت فيها ستائر الماء الهابطة من السماء نحو الأفق القريب، للبحث عن شيء نأكله. ذهب فنجري في اتجاه، وأنا في اتجاه آخر. بعد دقائق، سمعته ينادى على، وحين عدت رأيته يحمل الطريدة من ذيلها. كان قط بري أشهب سمين للغاية، كان خيط الدم لا يزال ينزل من ثقب في مقدمة رأسه، وحين حملته، كان بجسده بعض الدفء. كان مكتنزا وثقيلا. بعد لحظات كان لحمه "يطش" فوق جمر من شجر "الألازين" الذي أوقدناه فوق فسحة خارج الكوخ "تتخاطف الناضج منه "بالشابلات" من فوق النار. كان لحمه لذيذا وشهيا، وكانت رائحة الشواء التي كانت تحملها الريح العاصفة بعيدا ألذ بطريقة ما، كنت أقف باتجاه هبوب رائحة الشواء لحظت أيضا فنجري يقف بجانبي فاتحا خياشيمه لأستنشاق الشواء، كانت

رائحــة تدغدغ الحواس وتحرض على مزيد من الأكل، لم نبق مــن الهــر شــيئا. قدرت ما التهمناه معا ساعتها بخمس كيلوا جــرامات من اللحم وبعض العظيمات الرقيقة التي فتتتها النار وأجزاء من جلد الحيوان لم يتثنى لنا فصله عن اللحم.

كأنما كانت السحب المدلهمة تتدافع بحثا عن هذه الأرض التــي تأويــنا لتتسكب فيها، تجئ سحب تحلب نفسها على عجل وتمضــى، لتعقبها أخرى. وهكذا أيام وأيام وهي ترمي بحملها فوق أرض مترعة.

ذكرتنــي أمطار الأمس، بيوم بعيد من أيام طفولتي. يوم عزلنــي المطــر مع "منتاي" ابن جيراننا خلف أودية مجنونة، والتي رأيتها تخطفه. "منتاي" الذي كان في عمري تقريبا، أقصر قلــيلا وأنحل، وأكثر وسامة مني، يرتدى جلبابا طويلا وناصعا وكــان مبــتلا، خضنا في الوادي، كانت المياه توشك أن تغطي رأسينا. فجأة عندما بلغنا منتصف الوادي هاجمتنا أمواج وحلة، أتــت مــن مــرتفعات بعــيدة. كان التيار سريعا، وكان تلاطم الأمــواج وتدافعهــا يحــدث أصوات هادرة. لقد خطفه الموج وأغــرقه أمــام عينيــي مرات ثلاث ولم يعثر على جثته قط. خرجت بعد أن قتلني اليأس من إنقاذه.

لقـد خمنت عمتي "خديجة" إننا حتما في مأزق، وضعت علـى جسـدها جوال من الخيش "كبرنس" وخرجت من البيت. لا أدرى أين صار منتاي الآن؟ لقد رأيته يغرق ثلاثة مرات ولم أره بعدها.

حالمـا خرجت من الوحل لم أفكر سوى المضي بمحاذاة الخـور لعل أشداق أمواجه تقذفه في مكانا ما، ولكن لما أعيتني الحـيلة قـررت العودة. وهكذا مضيت متعثرا بأحجار، وبعض الأشـجار التي أعرف كل فرع فيها، وعبرها كنت أستدل على موقع قريتي بركنتيا.

وسـط الحلكـة الماطـرة اصطدمت بي عمتي وبعد أن وضـعت فوق رأسي جزء من الخيشة وهي تحيطني بذراعيها، قلت لها ضاع منتاي أخذه الموج. حزنت وطلبت منى ان أريها آخر موقع رأيته فيه عدنا إلى الوادي كانت أمواجه العكرة واقفة مثل جبال ورجعت بي إلى بركنتيا. كنت أبكي يأس ولوعة على فقـد منتاي، قالت لي وهي غير مصدقة إنها عثرت على حينما أبلغـتها عـن مصير منتاى: "حالما نبلغ القرية سنخبر الرجال، سيأتون للبحث عنه... والآن... كفى... بكاءاً... هل تخشى أن ينبـت المطر فوق رأسك عشبا؟". لم يعثروا عليه، ردمه الموج بالـرمل، ولـم يكف أبو منتاى طوال أشهر الصيف، والربيع،

والشـــتاء، عــن قلب أحشاء الوادي بجاروفه للعثور على عظام منتاى بلا جدوى.

وفـــي يـــوم مطير آخر بعيد حادثة غرق منتاى وفي بقعة تحـــيطها أشـــجار عالـــية شـــاهدت في برهة كسحت فيها الريح العاصفة غبش الرؤية التي كان يحدثها المطر رجل وامرأة يتقلبان عاريين فوق بساط من عشب مبلل. رأيت عجيزة المرأة وظهرها وساقاها حين انقلبت فوق الرجل قبل أن يديرها تحته مرة أخري. كـــان جسدها مغطى بعصير العشب الأخضر، كانت تضحك، أم تبكي لا أدري، لكنها كانت سعيدة.

الرجل كان يصب في أذن المرأة كلاماً مثل الغناء... أنا قلـــت لجســـدي كـــن غير مرئي، واعبر مثل رياح سريعة، أو خفيفا مثل دخان. اعبر يا جسدي مثل أسرار ملغزة، ولا تجعلني أكـــرهك. اعـــبر كنسيم لم تحسه أرض أو اهتزت لـــه أجنحة فـــراش. وقـــد عـــبرتهما دون إن يرياني مكتسبا حالتي الريح والدخـــان معـــا. حيـــن عدت حكيت لعمتي عن الرجل والمرأة المطرييـــن. همســـت في "أصمت" وقد بلبلتها جراءة هذا الطفل الغر في الحديث عن أمور كهذه.

عقـــب حادثــــة منـــتاي أصبحت صديقا لعمتي واستعدت وضـــعية الصبي المدلل الذي كنته قبل أن تأتي أختي الصغرى وأصبحت تقريبا معفي من أعمالا كثيرة، مثل الاحتطاب وجلب الماء من المورد وحتى أنني لا أذكر أن ذهبت حاملا قفة العيش إلـــى طاحونة "عد هداد" وهو الأمر الذي كان ضمن مهامي قبل الحادثة. فقط كنت أرعى نعاجي ولا شيء غيره.

كنت حين يطلب مني والدي القيام بأعمال تتطلب مجهودا أســـمعها تقول لـــــه فاتحة عينيها الواسعتين اللتين يسبح فوقهما الكحـــل. "كيف تقسو على طفل أفلت من الموت بأعمال لا قبل لـــــه بها". نزل أبي عند رغبة هذه الصبية "العنيدة" التي أكملت توا ربيعها السابع عشر ورفع عني يده ومن يومها صرت تحت وصاية عمتي.

كانـــت أمي تقول عنها: "إنها رجل البيت" حين يغيب أبي فـــي أســـفاره إلى السودان أو أبان صعوده إلى المرتفعات في زياراته الطارئة لأبناء عمومته.

أبـــي أيضـــا كـــان يرى فيها ولادة امرأة قوية تسد ثغرة غياب امرأة كهذه تحتاجها الأسرة والتي لم تسدها أي امرأة منذ رحـــيل الجدة "زينب" الكبيرة جدة والد جده لأبيه التي يقال عنها

أنهـــا كانـــت حازمة وشجاعة عرفت في صباها كأمهر رامية للســـهام وصـــيادة وعول ويحكى عنها الكثير من القصص التي لا تصدق ولا زالت جعبة سهامها معلقة في أحد أركان بيتنا.

لا هـــدأت مياه "بركة" ولا المطر هدأ قررنا عبور الخور لأن المهمـــة لا تحـــتمل التأخير. قالي لي فنجرى وهو يخوض أمامي في الخضم العكر:

- لا أظن أن هذا المطر يكترث بنا.

- هيا نرافقه إلى أن يسقط من التعب.

- ستكون رفقة جميلة.

- كلى أمل أن تكون كذلك.

كانـــت الـــرؤية متعذرة وكانت أقدامنا تخطو فوق الطين الزلق عندما سمعنا ضجة مراح أبقار شارد يعدو تحت المطر. كانـــت لا مرئية، داهمتنا فجأة، مرقت بقرة المقدمة تدفع أمامها الوحـــل. لكـــن القطعان التي كانت تعدو خلفها بجنون أسقطت فـــنجري ومشـــت عليه بحوافرها. أنا وجدت نفسي أقذف فوق الشـــوك. وكـــان سيل القطعان اللامرئي يندفع بلا توقف. تمكن فـــنجري من جر جسده صوب جذع شجرة ليحتمي به. بعد لأي

استطعت أنا من فك نفسي من شجرة الشوك الكلابية بعد أن مر القطيع المسعور. سمعت صوته الساخر:

- "معركة خاسرة".

- هل أصبت؟.

- وطئتني حوافر قذرة.

- بسيطة.

- وأنت؟

- خرطني الشوك.

- بسيطة.

استأنفنا المسير تحت المطر الذي كان يغسلنا من الطين.

قال لي فنجري: "أعرفت السر وراء عدو القطيع أم لا؟".

- أي سر؟ هل هناك أسرار في أن تعدو الأبقار؟.

- السرّ كان في بقرة المقدمة.

- ما لها بقرة المقدمة؟

- كانت مصابة.

- أتقول مريضة؟

- لا.

- ماذا إذن؟.

- أما أن تكون مصابة بناب أسد. أو نمر أو، ذئب، أو بناب أي مفترس. عند ما مرت بجانبي رأيت إصابتها، كان بها شق مدمي عند منطقة الضرع.

- ولم كان القطع يعدو وراءها على كل حال؟

- كـــان قـــد قـــرر طردها. أو قل مطاردتها وإبعادها عن القطـــيع. هذا قانون، هذه واحدة من علاجات القطيع عند ما يتعرض أحد أعضائه للعطب.

- قل كان يريد قتلها.

- هذا وارد جدا. لان المفترس حين ينشب فيها أنيابه يترك علـــيها رائحته أيضا. والقطيع يميز الرائحة العدوة فيها، عـــندها لا يـــراها مجـــرد بقرة من نوعه، بل يري فيها صورة المفترس الذي ترك عليها رائحته. هذه واحدة من تفسيرات الرعاة يا صاحبي.

- معني هذا أن القطيع سيفتك بها.

- وهل تعتقد أنها كانت تعدو بكل تلك القرون عبثا؟.

- أليس هناك أمل في أن تنجو؟

- فقط في حال ابتعدت كفاية، وتلاشت رائحة المفترس، أو تدخل الرعاة بعزل البقرة المصابة.

- قانون عجيب. أتعرف كلامك هذا أدخلني في حالة من تداعي الأفكار. هل ينطبق هذا القانون على حروب البشر؟ بمعني أن الإثيوبيين وجدوا مجتمعنا يعاني من عطب معين وأرادوا أن يبيدوه ليرثوا أرضه.

- لا أدرى إذا ما كان عطب الخلافات الذي كان يعانيها المجتمع الإرتري بين حزب الأندنت وحزب الرابطة هي التي شجعت الغزاة على المجيء أم لا؟. ولكن عموما أن الضعف، يعد نوعاً من العطب يغري الطامعين على التنمر عليك.

توقف المطر والسحب التي تبقت كانت بعيدة وظهرت في السماء فجوات زرقاء أخاذة. أحراش الغابة كانت كثيفة وموحشة ومترعة بالماء. حتى الدرب الضيق الذي يشقها كان طافحا. فجأة لمحته مغروس بين أغصان شجرة الطلح.

قلت لفنجري بعد أن استوقفته:

- أمامك ناب مفترس، أنظر.

- اللعـــنة، لـــيس الوقت المناسب لهذا. ثم قال لي بسخريته المعهودة، إذا ما مسك بنابه لا تتوقع مني مسامحتك، لأن الرائحة التي ستكتسبها ستدلل على انك نمرا وليس رفيقي المقاتل "منصور ضرار".

- لا أريد أن اضحك لكلامك هذا، هيا معك رصاصة واحدة أطلقها عليه وخلصنا منه.

- أولا، هـــي رصاصة الجبهة وليست رصاصتي، وتعرف مقـــدار الحســـاب العسير عليها. ثانيا، أفترض أن تطيش الرصاصة. أنه لن يتركنا.

- والحل؟

- الحل أن نمضي.

- نمضي؟

- بلي، نمضي... لن يعترضنا إذا ما حالفنا الحظ.

- حظ... حالفنا... أي حظ هذا الذي يحالف أناس مثلنا هذه الأيام؟

- الحظ فقط. أنت تري بنفسك.
- هل أنت جاد في اعتمادك على الحظ وحده؟
- ليتك تدلني على شئ آخر.
- كـــأنك تـــريد أن تثبت لي إنك مقامر فريد. لا حاجة بي لأعرف عنك المزيد، يكفي ما أعرف.
- لا تنسي الوقت.هل تحسب حسابه؟
- لم أغفل هذا الأمر مطلقا.
- لنعجّل إذن.
- أراك مصرّا.
- عدنا للجدال.
- أنا باق.
- هل جننت؟. أتريد أن تموت هنا من غير رفيق؟
- هذا أفضل من الذهاب نحو موت مؤكد.
- إن كان لا بد من وقوع الأمر فلا حيلة لنا.
- أرأيت هذه هي المغامرة التي عنيتها.

- ليست مغامرة بل خيار إجباري.

وهكذا مررنا قرب الشجرة تحت أنظار النمر الذي بدا انه غير مكترث بأمرنا.

لقـــد فشـــلت مهمـــة رحلتـــنا التي كانت لغرض استلام الإمـــدادات ونقلـــه إلـــى وحداتنا المقاتلة المرابطة على قطاع "مـــرب- سيتيت" حيث طلب منا العودة إلى موقعنا لأن الإمداد الذي قدمنا لأجله استولت عليه (المضادة).

قـــال لـــي فنجري محاولا تشجيعي وإخراجي من هاوية اليأس التي ابتلعتني:

- لا تقلـــق بشـــأن الإمـــداد، فالجبهة ستعوض ما خسرت بالإغارة على معسكرات العدو وتغنم منه ما تريد.

كـــان صـــيف هـــذا العام هو الأشد وطأة، حصي ساحة التدريـــب أحالـــته الشـــمس العارية إلى مجمرة. وكان "الهاب" الســـاخن ينفـــث مـــن باطـــن الأرض لافحا وجوه المستجدين المقروحة وظل الغبار يشرشر من السماء كأنما يرمي بمذراة.

وقـــف المدرب "دارشح" أمام الطوابير الطويلة مؤنبا أحد المتدربين الذي بصق كمية من الدم فوق الساحة.

هدر المدرب غاضبا:

- "هذه ساحة الشرف، أنتم الآن تقفون فوق ساحة الشرف. صمت للحظات وهو يجيل بصره على الوجوه والعيون الشاخصة نحوه. البصاق على هذه الساحة يعد إهانة للنضال.. وقبل أن يكمل سمع ما قاله أحد المستجدين بصوت خفيض. "يعنى المضادة، تعني نوع من البصق على ساحة الشرف".

- أجل، أنه فعل من تدنيس ساحة الشرف.

قال مستجد آخر:

- "المضادة، ومجموعة (عالة) الطائفية أيضا".

رد المدرب:

- "كل منطلق غير وطني، إنما هو تدنيس.

كلفنا أنا وفنجرى البحث عن رجل غريب. ظهر في المنطقة المحيطة بكركبت... كانت المعلومات قد أوردها أحد عناصر مليشيات الجبهة. وحددت آخر منطقة شوهد فيها عند البئر الثالثة المعروفة باسم "بافني" على وادي (همبول). تحركنا

صـــوب البـــئر عبر سهل (عردايب) وكانت سماء السهل تعج بأســـراب من النحل، كان يطير منخفضا، وكان مثل مذنب أسود بذيـــل عريض. وحالما مر مبتعدا بدا ككرة هائلة منبعجة وكثيرة الـــثقوب. كـــان فـــنجرى يرتدى سروال من الكاكي وينتعل حذاء بلاســـتيكي "شدة" لف وسطه بزنار وشريط ذخيرة وتمنطق بحزام عـــريض مـــن الجلـــد ثبتت عليه عدد من القنابل ولجانبها تدلت زمزمـــية الماء وفوق ظهره ثبتت حقيبة الأغراض. عرجنا على بيت بدوي مددت على الصخور قرب المدخله جلود لحيوانات برية كانـــت لنمر واحد وأربعة ثعالب واصلتان. استقبلتنا طفلة صغيرة شـــاحبة صافحتنا ثم عبثت قليلا ببنادقنا ومضت تنادى على أبيها. الذي رحب بنا وأجلسنا تحت شجرة ظليلة أعدها كمكان يستقبل فيه الضيوف وعابري السبيل. وقفت الصغيرة للحظات قربنا ثم ذهبت وتـــوارت خلـــف الصـــخور القريبة. ردت تنورتها إلى أعلى، ثم أطلقت المخاط الحار ورجعت بأنفاس مقطوعة.

ســـألنا الـــرجل إن كـــان قد رأى أي شخص قريب في الأنحاء.

أجاب:

- نعـــم. مـــنذ يوميـــن مـــرّ من هنا رجل. وقف عند باب المـــنزل. عـــزف على آلة (الطيرا واطا)، مقطوعات موسيقية، وأدّى بعض الأغنيات بالتجرنيا، ثم انتهي بمدح البيت وأصحابه. وانصرف بعد أن أعطيته ما تيسر.

وبعـــد أن أخذنـــا وصفاً لملامحه مضينا توجهنا نحو بئر بافنـــي. على حدود السهل الملاصق لوادي همبول. مررنا على صـــبيان كـــانوا يقذفـــون عصيهم القصيرة المقوسة نحو أفعى انتصبت على ذيلها وبدت من بعيد مثل عود جاف وعار. كانوا ينحنون ليقذفونها على مستوى رأسها وكانت تلك العصي تدور فى الجو كالمراوح.

كان فوق البئر بعض الرعاة وحولهم كانت جراءا صغيرة تتصـــادم بـــرفق وهـــي تعدو هنا وهناك تطارد ظلال الطيور المحلقة فوق البئر. سألنا الرعاة عن الرجل.

أوضـــح أحدهم قائلا: "إن كنتم تقصدون الرجل الشحاذ، رأيته ظهر يوم أمس في (شاترا)".

كانـــت شـــاترا هي البئر الخامسة والأخيرة على مجرى همـــبول بتجاه الغرب. كانت منطقة البئر الواسعة خالية، وكانت

الأحواض حولها مليئة بالماء. قلت لفنجرى الذي عاد إلى البئر بعد أن تفحص المنطقة المحيطة بحثا عن أية آثار آدمية غريبة. إذا كـــان الـــرجل فـــي هذه المنطقة. حتما سيأتي طلبا للماء أن عاجلا أو آجلا.

- إذا كان..

قـــررنا أن أمكث أنا عند نقطة على حافة الوادي تمكنني من مراقبة البئر. في حين يمضي فهو للبحث والاستطلاع حتى تخـــوم خور (فانا) شمالا. طوال الليل وردت إلى البئر بعض الحـــيوانات البرية، . بعضها تعارك هناك عراك مرا. والبعض منها تمرغ فوق الأحواض بحذر.

مضـــى فـــنجرى بمحـــاذاة الوادي شرقا مر قرب البئر الـــرابعة (سكت) ثم عند منتصف الليل عند خور (إيكارع) وجـــد معلومة مِؤكد تقول، أن الرجل وجد منفوخ الجسد بعد أن التفـــت على رجله أفعى عطشى وأن أفراد الميليشا الذين عثروا عليه تأكدوا من أنه كان جاسوسا بعد أن وجدوا في تجويف الآلة الموسيقية جهاز إرسال ومسدس.

حالمـــا بلغنا أخبار العثور على جثة الجاسوس فكرنا أن نزور العم "أبو حليمة" كنا بالقرب من موقعه.

أتت الفكرة من فنجري الذي قال لي:

- كيف تراه يكون العجوز أبو حليمة.

أجبته:

- أتعرف كلما تذكرته هو ورفاقه من الرعيل الأول. أقول في نفسي أن إرتريا يجب أن تتحرر من أجلهم. من اجل أن يعيشـــوا الحـــياة يوما ما كما ينبغي، ودائما أقول في نقاشاتي مع المناضلين أو مع الجماهير. لو لم يكن صنف الرجال الذين كانوا مع عواتي يوم أطلق رصاصة إعلان الـــثورة فـــي جبل "أدآل" على صفات هؤلاء الأبطال لما نجحـــت الجـــبهة بمثل تلك السرعة التي مكنتها من أخذ المبادرة وبسط سيطرتها على مساحات من الريف لم يكن يحلم بها حتي المتفائلين من قادتها. هؤلاء الرجال اللذين وهـــبوا حـــيواتهم للقضـــية كابدوا مشاق البدايات الأولي عـــانوا الحـــرمان ودعكـــوا فـــي المعـــارك مثل أبطال الأســـاطير. أتذكـــر العـــبارات التي قالها قبل أن يصاب

(على العدو أن يحارب بشجاعة كأي محارب فأن خسر لا ينبغي لــه أن ينتقم من النساء والأطفال الأبرياء وان ربــح فهــذه حرب ولابد من مهزوم وان هزمك فبعد أن أديت ما عليك وجربت كل حيل الرجال المحاربين.

يـــا إلهي إنه منظر مروع، قال فنجري ثم صمت ، وأخذ يـــنظر للأغبرة الكثيفة والأحجار المتدحرجة من جنبات الجبل وهـــي تـــرتطم في طريقها بالأشجار جراء هزة أرضية خفيفة وقعـــت تـــوا. وقـــتها كنا قد اقتربنا من سلسلة جبال "حرماز" الرمادية التي كانت تنهض عارية إلا من أشجار اللبان "اللوالوال" المتـــناثرة ولم تكن تفصلنا عنها سوى مسافة قصيرة هي عبارة عن أرض حجرية قاسية كثيرة الحفر. كان فنجري يسير أمامي وقد لف حول خصره فوطة أتفرجت عند أسفل ركبتيه، وكانت حذائـــه "شدة" البلاستك تنقل لراحتي قدميه حرارة الرمل المتقد. وكـــان وجهه قد اكتسب لمعان الأبنوس المصقول بفعل العرق، أحسســـنا برجفة الأرض تحت أقدامنا، كانت كما لو أن عمودا صـــخريا هـــائلاً ســـحب مـــن أحشائها فأحدث بها تلك الرجفة المكـــتومة الطويلة، ورغم خفتها إلا أنني قد شعرت بها تسري من الأرض إلى بدني.

قال فنجري:

إنه منظر لا يغري بالتقدم قد تعاود الهزة من جديد، وأخشى أن يكون أبو حليمة قد دفن.

قلقت على أبو حليمة وهو مقاتل مسن، من الرعيل الأول، عهدت إليه الجبهة حراسة إحدى مغاراتها السرية التي تحتفظ فيها ببعض اعتدتها العسكرية. لما بلغنا أعتاب الجبل وكان قد عرف بين المقاتلين باسم جبل "أبو حليمة" انطلق صوت فنجري مناديا "يا أبا حليمة... أبو حليمة" دهشنا لما جاءنا صوت أبي حليمة من قعر الوادي وليس من الجبل. التفتنا إليه، كان واقفا بكامل عافيته، مشينا نحوه ولما بلغناه رأينا ما لم يصدق، صناديق الأعتدة موضوعة بنظام ومموهة داخل أجمة. قلت له:

– ماذا حل بجبلك يا أبا حليمة؟

كما ترى، يبدو أن الصخور قد ملت.

– وما هذه الصناديق؟ قال فنجري. هل كنت تعرف بأن الزلزال سيقع؟

– هذه قصة تريد من يصدقها.

– أنا أصدقك، لكن قل لي كيف عرفت بالزلزال؟

– أتعرفون، قال أبو حليمة. منذ مطلع هذا الصباح غادرت القطـط الـبرية الجـبل، ومعها غادرت الوعول وحتى الثعالـب، عندما رأيت هذه الكائنات تغادر ركبني الشك وكنـت أبحـث عـن تفسير لما يحدث، طيلة الفترة التي مكثـتها هـنا لـم أر مـثل هـذه الأعـداد من القطط، ولا الوعـول. قلت في نفسي أن هذا الجبل سيشهد أمرا جلل وقلت يجب على أنا أيضا النزول وعرفت أن القطط والثعالـب والوعول أدركت بغريزتها أن زلزالا ما سيقع فطلبت العون من رجال صادف مرورهم من هنا وهكذا أنزلت حاجات الجبهة التي ترونها.

– هذا أمر أعجب من العجب، قال فنجري. وجلس ووجهه للجبل والمغارة التي مسحت تماما.

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية

دار قباء الحديثة

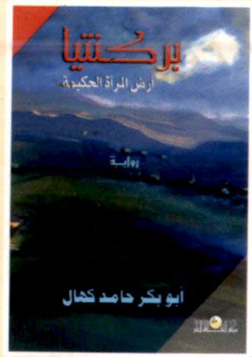
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

جمهورية مصر العربية

16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/22621365 - محمول 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com



يقدّم مجلس الثقافة العام للقارئ الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة ، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً ، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام